الحس الإسلامي في كتاب النظرات للمنفلوطـــي
وأثره فى مضامينه وأسلوبه

بقلم الدكتور
مصطفى عبدالرحمن إبراهيم عبدالرحمن
أستاذ الأدب والنقد المساعد فى
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد...

فالمنفلوطى نشأ فى بيئة إسلامية خالصة تحفل بالدين وتقدس القرآن وتحفظه مما كان له أثر واضح فى تشكيل فكره، وتقويم أسلوبه، وأصبح لديه بفضل حفظه للقرآن الكريم والحديث الشريف ودراسته بالأزهر وصحبته للإمام قدرة تعبيرية جيدة تبدو واضحة فى كتابه النظرات الذى جذب القارئ العربى إلى لون من البيان النثرى، فيه جمال الشعر صياغة وسلاسة وتصويرا وانسجاما، مع عاطفة صادقة، ونبض دافق ينتقل إلى النفوس فيملك عليها أقطارها بما يصور ويبدع.

ولقد احتل الجانب الإسلامى مساحة كبيرة من هذا الكتاب، ذلك أن المنفلوطى أديب ملتزم له منحى خلقى عرف به أساسه تعاليم الإسلام التى تشربها روحا وآمن بها اعتقادا، وقام بمحاربة مظاهر الإلحاد والزندقة والفجور والخلاعة، وأحب العطف على المساكين والمنكوبين ممن عضهم الدهر بكوارثه، وبكى من أجلهم، مما يدل على أنه كان ذا حساسية مفرطة شديدة التأثر سريعة العبرة والانفعال، يهدف من وراء ذلك إلى غاية إنسانية واجتماعية، وقد نجح إلى حد كبير فى تحقيق هدفه.

ولما كان الإسلام يهيمن على أحاسيس المنفلوطى هيمنة تبدو واضحة فى كتابه النظرات، وتجعله صاحب رأى إسلامى ثاقب، وأدب دينى مستنير، دفعنى هذا لدراسة حسه الإسلامى فى هذا الكتاب دراسة تحليلية تبرز مضامينه وخصائصه الأسلوبية، فكان هذا البحث الذى انتظمت معالمه فى تمهيد وفصلين وخاتمة.

التمهيد عبارة عن حياته وآثاره ودوره الريادى فى تطوير النثر العربى الحديث، والفصل الأول لدراسة المضامين الإسلامية، والفصل الثانى لدراسة

استصائص الفنية، وأنهيت هذه الدراسة بخاتمة أوضحت فيها أبرز النتائج التـــى توصلت إليها هذه الدراسة.

وهذه قطرات من بحر أدب المنفلوطى أقدمها للقراء، ولا أدعى أننى بلغت بهذا كمالا، فالكمال لله وحده، ولكنها محاولة آمل منها وضع لبنة فى بناء صرح مكتبتنا العربية الشامخ.

والله أسأل أن يمن علينا بنعمة التوفيق والرضا، وما توفيقى إلا بالله عليـــه توكلت وإليه أنيب.

الفقير إلى عفو ربه
د./ مصطفى عبدالرحمن إبراهيم عبدالرحمن
الأستاذ المساعد فى كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنين بالقاهرة. قسم اللغة العربية وآدابها

وفى أول عهده بالأدب، كان المنفلوطى يكتب الشعر، وكان يسهم بهذا الشعر كما يسهم بالنثر فى النضال. وقد بلغت به الشجاعة أن هاجم بقصيدة من قصائده الخديوى عباس الثانى، بعد أن اتضح للمنفلوطى موقف هذا الخديوى وخداعه للشعب.

وقد وزعت هذه القصيدة فى منشور يحمل اسم "الصاعقة" بمناسبة حضور الخديوى إلى القاهرة قادما من الإسكندرية، بعد رحلة داخلية كانت جريدة المؤيد تعنى برصدها ووصف الاحتفالات بها. وتاريخ توزيع هذه القصيدة فى منشور هو ٤-١١-١٨٩٧، وهو اليوم التالى لعودة الخديوى. وهذه بعض أبيات القصيدة: (١)

قُدُومٌ ولكنْ لا أقولُ سعيدُ ... ومِلْكٌ وإنْ طَالَ المدَى سَيبيدُ
بَعُدْتَ وثَغْرُ النَّاسِ بالبِشْرِ بَاسِمٌ ... وعُدْتَ وحُزْنٌ فى الفُؤَادِ شَدِيدُ
تمرُّ بِنا لا طرفَ نحوك نَاظرٌ ... ولا قَلْبَ مِنْ تِلْكَ القلوبِ ودُودُ
عَلامَ التَّهَانِى هَلْ هُنَاكَ مآثِرٌ ... فَنَفْرَحَ أَوْسَعْى لديكَ حَمِيدُ؟

وقد حوكم المنفلوطى ــ وهو فى نحو العشرين ــ بسبب هذه القصيدة التى لا يقولها إلا فنان فدائى، وحكم عليه بالسجن اثنى عشر شهرا. وحين استأنف الأديب الحكم ونظرت القضية من جديد، خفف السجن إلى ستة أشهر.

وقد عانى المنفلوطى كثيراً بسبب هذه العقوبة، وظل بعد تنفيذها مبعدا عن أى عمل حكومى، ولكن مسعى كريماً من الشيخ محمد عبده أعاد إلى الرجل بعد حين حقوقه الشخصية.(٢)

ولما توفى الإمام محمد عبده سنة ١٩٠٥ ضاقت على المنفلوطى الأرض بما رحبت، ورأى القاهرة كئيبة لا تسكن فأثر الانزواء ببلدته منفلوط، "ومكث بها برهة سنتين، يراسل المؤيد بأسبوعياته. ثم رجع إلى القاهرة، وثابر على التأليف والكتابة فى الصحف حتى مات. وكان محازباً لسعد زغلول باشا، فبره

---

(١) مصطفى لطفى المنفلوطى، د./ محمد أبوالأنوار، ٣/٢٩٠.
(٢) دراسات أدبية، د./ أحمد هيكل، ص ١١٨و١١٩.

سعد بمناصب الحكومة. ومات وهو رئيس لفرقة من كتـــاب مجلـــس الشـــيوخ ومشاهرته لا تقل عن خمسين جنيهاً".[١]

٣-آثاره:

ترك المنفلوطى آثارا غير قليلة بين موضوع ومترجم: منـــها النظـــرات ثلاثة أجزاء، وهى أسبوعياته التى كان يكتبها فى المؤيد، وفيها ما هو منقـــول ليس من وضعه، والكتاب عبارة عن سلسلة مقالات فـــى التربيـــة والأخـــلاق والاجتماع والدين، وهو صورة حية لطفرة المنفلوطى بالنثر الأدبى، ويمثل ثمرة ناضجة للكتابة فى العصر الحاضر حيث جمع فيـــه بيـــن الأفكـــار الحديثـــة والأسلوب العربى الأصيل، والكتاب لا يخلو من نظرات تأملية تتغلغل فى بعض الأحيان إلى أعماق النفس الإنسانية، ومن آراء فى إصلاح المجتمع لا تخلو مـــن التحليل الصحيح والتعليل الموفق.

ومنها العبرات جزء واحد وهى مجموعة قصـــص بعضـــها موضـــوع، وبعضها مترجم. ولم يكن هم المنفلوطى فيه موجها إلى كتابـــة القصـــة وفقـــا للقواعد الفنية "إنما اتخذ القصة وسيلة إلى معالجـــة الموضـــوع والتـــأثير فـــى المشاعر وبث الأفكار والآراء".[٢]

ومنها قصص أخرى نقلها على حدة، وهـــى الشـــاعر أو ســـير انـــودى برجراك لآدمون روستان. وفى سبيل التاج لفرانسو كوبيه. ومجدولين أو تحـــت ظلال الزيزفون لألفنس كار. والفضيلة أو بول وفرجينى لبرناردين سان بير.

ومنها مختارات المنفلوطى وهو عبارة عن مختارات أدبية، من عصـــور الأدب المختلفة، جمعه المنفلوطى، ليكون فى يد الناشئة وسيلة لتثقيـــف ذوقـــهم الأدبى.

ومنها شعر المنفلوطى وهو مجموع نتاجه الشعرى سواء ما ظهر منه فى طبعات متقدمة للنظرات مع ما أصابه من تحوير وحذف، وما هو مبثوث فـــى

---

(١) أدباء العرب، لبطرس البستانى، ٣/٣٧٦ و٣٧٧، ط دار الجيل بيروت.

(٢) الجمهورية ٣ يوليو ١٩٦٣ عباس خضر.

تضاعيف الصحف والمجلات[1]، وقد قام الدكتور محمد أبوالأنوار بجمعه وتوثيقه ودراسته فى الجزء الثالث من كتابه عن المنفلوطى.

هذه المؤلفات التى ذكرناها للمنفلوطى تعد الزاد الروحى والفكرى والأدبى للحركة الرومانسية فى الأدب والشعر فى هذا القرن، بل مدرسة كاملة تخرج عليها الكثير من الأدباء والموهوبين، وتأثروا بأدبه الحى، وأسلوبه العجيب، وقصصه الغريب الرائع، الذى أعاد للعربية شبابها ورونقها وسحرها، وكساها من المجد والخلود والحيوية مطارف لا تبلى.

٣-دوره فى تطوير النثر العربى الحديث:

لقد قام المنفلوطى بأعظم دور فى تطوير النثر العربى الحديث، وإليه يرجع تخليص هذا النثر نهائيا مما كان يتردى فيه من تفاهة وركاكة رانت عليه طيلة عصور التخلف، وبخاصة فى العهد التركى، الذى امتد نحو ثلاثة قرون.

لقد كان النثر قبل المنفلوطى يتجه وجهتين لا تتلاقيان، فالنثر الفنى الحافل بأصباغ البديع المطبوع، له مدرسته التى تزعمها عبدالله فكرى، وتبعه فريق من أصحاب هذا الاتجاه نذكر منهم محمد المويلحى وحفنى ناصف ومصطفى نجيب، والسيد توفيق البكرى، وأقواهم جميعاً فى هذا المضمار محمد المويلحى صاحب عيسى ابن هشام، حيث أعاد رونق بديع الزمان شكلا، وصور حاضر مصر الاجتماعى والسياسى موضوعاً أجمل تصوير وأبهاه، أما النثر المرسل فقد تزعمه الإمام محمد عبده فى كهولته المباركة بعد أن تخلص من غثاء التكلف المصطنع، وتبعه فى اتجاهه فريق من خيرة كتاب العصر نذكر منهم على يوسف وقاسم أمين وأحمد فتحى زغلول وأحمد لطفى السيد، على نسب متفاوته إذ كل منهم يهتم بالفكرة الواضحة دون نظر إلى رونق الصياغة وبهاء التركيب "وقد جاء المنفلوطى والتياران المتعارضان فى النثر الأدبى يفترقان إلى غير لقاء، فأخذ من تيار مدرسة الإمام رحمه الله تحديد الموضوع، والاهتمام بالفكرة، والاسترسال مع الحجة حتى يبلغ بها منزلة الإقناع، وأخذ من تيار

---

(١) مصطفى لطفى المنفلوطى، د./ محمد أبوالأنوار، ص ١١٩و ١٢٣.

مدرسة عبدالله فكرى، جمال الصورة فى غير تقييد بالبديع، ورقة العاطفة فى انسياب عذب، فجاء أسلوب صاحب النظرات نمطا جديدا يجمع أحسن ما فى التيارين من مزايا، وزاد عليهما ما نفحت به رقته الإنسانية من أحاسيس شفافة، تلمس أوتار القلوب مسا مؤثراً خاليا، فأقبل القراء على ارتشاف آثاره، وأصبح المنفلوطى زعيم مدرسة أدبية جديدة، وأخذ الكتاب يقتفون آثره ويحتذون منهجه".(١)

وقد خرج المنفلوطى بطريقة فى الكتابة تعد الطريقة الأم لكل الاتجاهات الفنية الأسلوبية فى الكتابة العربية الحديثة، وأهم معالم هذه الطريقة: "البعد عن التكلف، والنأى عن التقليد، والقصد إلى الصدق، والاهتمام بالصياغة، وجمال الإيقاع، ورعاية الجانب العاطفى، ثم الميل إلى السهولة والترسل، وترك التعقيد والمحسنات فيما عدا بعض السجع المطبوع الذى يأتى بين الحين والحين للإسهام فى موسيقى الصياغة".(٢)

وقد اتجه المنفلوطى فى كتابه النظرات إلى الجانب الإسلامى الذى رأيناه بارزا فى مقالات هذا الكتاب. ولاشك أن النشأة الدينية التى نشئها المنفلوطى فى بيت شرف ونسب، ثم دراسته بالأزهر، وصحبته للأستاذ الإمام محمد عبده وتشربه مبادئه وإعجابه به هى التى وجهته تلك الوجهة الدينية، وجعلته أديبا إسلاميا ملتزما صاحب رأى عرف به واشتهر، وهذا ما نعالجه من خلال دراستنا لحسه الإسلامى فى كتابه النظرات.

وقد برزت معالم هذه الطريقة فى كتابه النظرات الذى جمع فيه بين المحافظة والتجديد، ففيه محافظة من حيث "اتخاذ القديم الجيد مثلا أعلى فى الصياغة، وفيه تجديد من حيث تطوير الأدب وإضافاته، واتخاذ الإطار البيانى المحافظ وسيله للتعبير عن مشاعره وتجاربه وعصره، بحيث تتضح شخصيته كأجلى ما تكون".(٣)

---

(١) بين الأدب والنقد، د./ محمد رجب البيومى، ص ١٣٥ ط الدار المصرية اللبنانية.

(٢) دراسات أدبية، د./ أحمد هيكل، ص١٢١.

(٣) نفس المرجع والصفحة، بتصرف.

الفصل الأول

المضامين الإسلامية في كتاب النظرات

المبحث الأول: المحافظة على هوية أمتنا العربية الإسلامية

عندما خفت صوت الأحزاب الإسلامية بعد هزيمة دولة الخلافة، وبرز دعاة الحضارة العربية من المتفرنجين يحرصون على نقل كل جديد، والجرى وراء كل طريف برلق. دعا هذا بعض المفكرين إلى أن ينادوا بغربلة ما ينقل عن الغرب والتمييز بين ما ينفعنا منه وما يضرنا، وما نأخذ منه وما ندع. (١)

وقد كان المنفلوطي في مقدمة هؤلاء المفكرين عندما نراه يدعو إلى المحافظة على هوية الأمة وشخصيتها وإصلاحها باسم المدنية الشرقية لا باسم المدنية الغربية، والتماس هذا من حضارة أمتنا العريقة، وفهم تاريخها والتمسك بقيمه الرفيعة وأخذ المفيد من الغرب بطريقة الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم ليبرز شخصية الأمة وذاتيتها واستقلالها.

وقد برزت هذه المعاني في مقاله عن: "المدنيه الغربية" فنراه يؤكد على إسلامية وشرقية الأمة المصرية، وإن هذا باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يقول: "الأمة المصرية أمة مسلمة شرقية، فيجب أن يبقى لها دينها وشرقيتها ما جرى نيلها في أرضها، وذهبت أهرامها في سمائها، حتى تبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

إن خطوة واحدة يخطوها المصرى إلى الغرب تدنى إليه أجله، وتدنيه من مهوى سحيق يقبر فيه قبرا لا حياة له من بعده إلى يوم يبعثون. (٢)

ثم نراه يعيب على المصرى تبعيته العمياء للغرب، وأخذه لفضائل المدنية الغربية أخذا مشوها لا يعرف له مغزى، والإقبال على رذائلها مترسما طريق الفجور والإلحاد والاستهتار.

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د./ محمد محمد حسين، ج٢، ص١٨٦ و ١٩٦ بتصرف، ط مكتبة الآداب الثالثة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٢) النظرات للمنفلوطي، ج١، ص١٣٢ و١٣٣.

إن الإصلاح الحقيقى إنما ينبع من صميم أمتنا والنظر إلى حضارتنا وأمجادنا الإسلامية، والعار الحقيقى على المسلم الشرقى معرفته بالثقافة الغربية وسيره فى ركابها وتركه لثقافته الإسلامية التى تحفظ هويته وترفع مكانته، يقول المنفلوطى: "إن فى المصريين عيوبا جمة فى أخلاقهم وطباعهم، ومذاهبهم وعاداتهم، فإن كان لابد لنا من دعوة إلى إصلاحها، فلندع إلى ذلك باسم المدنية الشرقية لا باسم المدنية الغربية.

أن دعونا إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلا بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا، لا بباريس وروما وسويسرا ونيويورك، وإن دعونا إلى مكرمة، فلنتل عليهم آيات الكتب المنزلة، وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه، لا آيات روسو وباكون ونيوتن وسبنسر؛ وإن دعونا إلى حرب، ففى تاريخ خالد بن الوليد، وسعد بن أبى وقاص وموسى بن نصير، وصلاح الدين؛ ما يغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطون ونلسن وبلوخر؛ وفى وقائع القادسية وعموريه وأفريقيا والحروب الصليبية، ما يغنينا عن وقائع واترلو وترا فلغار واوسترلينز والسبعين.

إن عارا على التاريخ المصرى أن يعرف المسلم الشرقى فى مصر من تاريخ بونابرت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية، ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية، ومن مبادئ ديكارت وأبحاث دارون ما لا يحفظ من حكم الغزالى وأبحاث ابن رشد، ويروى من الشعر لشكسبير وهوجو ما لا يروى للمتنبى والمعرى.[1]

ومع هذه النظرات الصائبة التى تحافظ على كيان الأمة نراه لا يقف جامداً أمام الفكر الغربى، بل يدعو إلى الاستفادة منه بعد تعريبه، والنظر إليه نظر من يريد التبسيط فى العلم والتوسع فى التجربة والاختيار، لا على أن نقلده وننقله وننتحله قاعدة لنا فى استحسان ما نستحسن من شئوننا، واستهجان ما نستهجن من عاداتنا، فهو لا يكره المدنية الغربية لذاتها، بل يكره رذائلها ومفاسدها وهو

---

(١) نفس المرجع، ص ١٣٥و ١٣٦.

بهذا لا يجعل الأمة تذوب فى الكيان الغربى الذى يطمس معالمها، ويقضى على هويتها، ويجعلها تحافظ على استقلالها وذاتيتها.

وفى مقدمة نظراته نرى "شدة سخطه وحنقه على الحضارة الغربية. حضارة المستعمر؛ إذ كان يرى أنها جرت الموبقات والمفاسد على الأمة، وباعدت بين جمهرة الناس والسلوك الدينى الطيب. وأنها خدعة من خدع الاستعمار يفتن بها الشعوب المغلوبة على أمرها، ولا يلبث أن يجنبها لألاؤها فتنحل أخلاقها، وتشيع بينها الفحشاء، والاتجار بالأعراض وانتهاك الحرمات، وشتى ألوان الشرور والآفات"[١] يقول فى ذلك: "فكان من همى أن أدل على شرور الأشرار الكامنة فى نفوسهم، وأن أكشف الستر عن دخائل قلوبهم حتى يتراءوا ويتكاشفوا، فيتواقعوا ويتحاجزوا، فلا يهنأ خادع بخدعته، ولا يبكى مخدوع على نكبته، ولا يتخذ بعضهم بعضا حمراً يركبونها إلى أغراضهم ومطامعهم، وكان منشئ فى قوم بداة سذج لا يبتغون بدينهم دينا، ولا بوطنهم وطنا، ثم ترامى بى الأمر بعد ذلك، وتصرفت بى فى الحياة شئون جمة، فخضعت لكثير من أحكام الدهر وأقضيته، إلا أن أكون ملحدا فى دينى أو زاريا على وطنى، فاستطعت ــ وقد غمر الناس ما غمرهم من هذه المدنية الغربية ــ أن أجلس ناحية منها. وأن أنظر إليها من مرقب عال، وكنت أعلم أن من أعجز العجز أن ينظر الرجل إلى الأمر نظرة طائرة حمقاء، فإما أخذه كله أو تركه كله، فرأيت حسناتها وسيئاتها، وفضائلها ورذائلها، وعرفت ما يجب أن يأخذ منها الآخذ وما يترك التارك، فكان من همى أن أحمل الناس من أمرها على ما أحمل عليها نفسي، وأن أنقم من هؤلاء العجزة الضعفاء وتهالكهم لها، واستهتارهم بها، وسقوطهم بين يدى رذائلها ومخازيها وإلحادها وزندقتها"[٢].

وفى مقالة: "أمس واليوم" يتحدث عن دور مدارس اللغات فى طمس الهوية الإسلامية والعربية، وإقبال أولادنا على سلبياتها وتركهم لإيجابياتها، ومن سلبياتها أنها لا تهتم بالدين، ولا تدين بولاء لوطن، وقد أتى هذا بالأثر السئ

---

(١) نشأة النثر الحديث وتطوره، لعمر الدسوقى، ص١٩١.

(٢) النظرات: ٢٦/١ و٢٧.

على أولادنا الذين تعلموا فيها، فلا عزاء يستروحون به في مواجهة مصائب الحياة، لأن الدين وحده هو المعين عليها والركن الشديد الذى يأوى إليه الإنسان، ويقرب إليه ما يريد فيما لا قدرة له عليه.

يقول في ذلك وهو بصدد حديثه عن قصة رجل مصرى أدخل أولاده "مدارس مختلفة الإنكليزية والفرنسية والألمانية، ثم تخرجوا، هذا إنكليزى بفظاظته وخشونته، وهذا فرنسي بخلاعته واستهتاره، وهذا ألماني بخيلائه وكبريائه، وجميعهم متفرنجون مشربا ومذهبا ومطعما وملبسا ومسكنا، وما فيهم من تفرنج همة وعملا.

خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن، أما الدين فلأن أكثر مدارسنا حتى الأهلية منها مادية محضة لا تعلق للدين بشأن من شؤونها، والدين خلق شأنه كبقية الأخلاق، لا يرسخ في النفس إلا بتكرر الصور الدينية وتداولها عليه، فإن بعد عهدها بما أغفلته وأنكرته، وكذلك شأن هؤلاء الأولاد والمساكين فقست قلوبهم؛ وجمدت نفوسهم، وفقدوا بفقد دينهم أطيب عزاء يستروحه الإنسان في هذه الحياة المملوءة بالمصائب، الحافلة بالكوارث.

والإنسان مهما طال حوله، وكثر طوله، واتسعت مذاهب قوته، فليس ببالغ في دهره المعاند ما يريد، لولا زهرة الأمل التي يتعهدها الدين بالسقيا في قلب المؤمن، فيستروح منها ما يزوح عن قلبه، ويسري عن نفسه، ولولا يقينه أن هناك حولا أكبر من حوله، وطولا أعظم من طوله، وإلها قادراً يقرب إليه ما يريد مما ضاق به ذرعه، وعيت عنه قوته".[1]

ويشاهد المنفلوطي في حياته تلك المعركة المستعرة بين أنصار القديم والجديد عقب الحرب العالمية، ويغمر مصر في أثنائها طوفان من مختلف الأجناس عاثوا في الأرض فسادا، فنشروا الرذيلة، وأقاموا دور البغاء و الخمر والقمار، واغتنم هذه الفرصة سفلة القوم فعملوا على ترويج الخبائث وتزيينها، ونصب الشراك لجذب الناس لهذه الدور، "واتخذت هذه الدور من تقاليدنا من كل مقدساتنا موضوعا للسخرية باسم الترفيه، مما دعا المنفلوطي إلى أن يتجه

---

(١) النظرات: ٣/١٧٢ و١٧٣.

للشباب، وللطلبة خاصة، يلومهم على الانصراف عن مسارح التمثيل الجدى إليها، وذلك فى مقال له[١] كتبه خلال الحرب عن "فرقة الريحانى" التى كانت تسمى وقتذاك "فرقة كشكش" على اسم الشخصية الهزلية التى اخترعها صاحبها وقتذاك، وهى شخصية عمدة ريفى ساذج، تدور الحوادث دائما حول إضحاك الناس من تفكيره ولهجته وعاداته. والمنفلوطى يعجب فى مقاله هذا من تهافت الناس عليها مع ما اجتمع فيها من سخف التمثيل وبروده، وثقل المُلَح، وسوقيه الأناشيد، مع ما فيها من الهزء والسخرية بالطبقات الشريفة كالفلاحين والمعممين والمعلمين، وتمثيلها للشهوات البدنية والنفسية بجميع ألوانها وضروبها على مشهد من الرجال والنساء والأطفال، وهم مع ذلك كله يحاولون أن يلبسوا مفاسدهم وشرورهم ثوب الفضيلة والجد". [٢] "يمثلون الفلاح أقبح تمثيل، ولا يتركون مفسدة من المفاسد ولا رذيلة من الرذائل إلا ويلصقونها به، وينشدون مختلف الأناشيد فى السخرية بشكله والهزء بصفاته وأعماله، ثم لا يخجلون أن يقولوا بعد ذلك فى بعض تلك الأناشيد (ما دامت بلادنا زراعية، حبوا الفلاح إن كنتم تحبوا وطنكم).

"وينتقدون فى رواياتهم فساد الرجال وخلاعة النساء وينقمون على المصرى تبديد أمواله فى سبيل شهواته، وليس للنساء فى مسارحهم عمل سوى إغراء الشبان وإغوائهم وإفساد عقولهم وابتزاز أموالهم فى الساعة التى تمثل فيها هذه الروايات وتلقى هذه الأقوال".[٣]

وخلاصة القول إن المنفلوطى استطاع أن يحافظ من خلال مقالاته فى كتابه النظرات على شرقيته الإسلامية، ويجعلها طابعا عاما فى كتاباته يجلى حسناتها، غير مغض طرفه عن عيوبها، محاولا إصلاحها، منطلقا فى ذلك من أصاله تاريخية تضرب بجذورها نحو ثقافته الشرقية الإسلامية، ولعل هذا من أنجح أساليب الإصلاح، لما فيه من المحافظة على هوية الأمة واستقلالها فى

---

(١) النظرات ٣/٣٨ -٤٦ تحت عنوان "الملاعب الهزلية".

(٢) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر، د./ محمد محمد حسين، ٢/١٨٤.

٣١) النظرات: ٣/٤٣ و٤٤.

وقت تكاد لها المكائد، ويتربص بها الدوائر من قبل أعدائها لطمس هويتها والقضاء على استقلالها بذوبانها فى مدينيتهم الغربية.

وفى الوقت الذى يذود فيه المنفلوطى عن حياض الأمة، ويريد لها الإنطلاق من ثوابتها الراسخة، نراه منصفا حين "لا يمانع أن يترجم لنا المفيد من مؤلفات الغرب. والجيد الممتع من أدبهم، وأن ينقل إلينا بعض عاداتهم وأسباب مدينيتهم، على أن لا نكون مقلدين مستسلمين منتحلين، بل ننظر إليها بعين المنتقد لنختار ما يوافقنا".(١)

وانطلاقا من موقف المنفلوطى الذى اتسم بالاعتدال فى تعامله مع المدنية الغربية فنحن لسنا مع ما ذهب إليه الأستاذ عمر الدسوقى الذى قال عن المنفلوطى إنه "يحارب هذه المدنية غير ناظر إلا لمساوئها. بل كان يرى أنه من الخير للشرق أن يتجنبها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ولو ظل على جهالته"(٢) ولسنا أيضا مع الدكتور شوقى ضيف الذى قال وهو بصدد الحديث عن موقف المنفلوطى من المدنية الغربية إنه: "قد أساء الظن بها، ورد إليها معايب الشباب وانغماسهم فى حمأة الرذيلة، وكأنه غاب عنه ما تحمل هذه المدنية من خير للإنسانية، ففيها الشر وفيها الخير، فيها ما ينبغى أن نرفضه وما ينبغى أن نأخذه".(٣)

فالرجل لم يحارب المدنية على اطلاقها كما ذهب إلى ذلك الأستاذ عمر الدسوقى ولم يسئ الظن بها، ولم يغب عنه ما تحمله من خير للإنسانية كما ذهب إلى ذلك الدكتور شوقى ضيف، ولعل خير دليل على رد ما قاله العالمان الجليلان قول المنفلوطى: "لا مانع من أن يعرب لنا المعربون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب، والجيد الممتع من أدب كتابهم وشعرائهم، على أن ننظر فيه نظر الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم، فلا نأخذ كل قضية مسلمة، ولا

---

(١) الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضة الأدبية الحديث، د./ أنيس المقدسى، ص ٢٩٣ ط دار العلم للملايين، بيروت.

(٢) نشأة النثر الحديث وتطوره للأستاذ/ عمر الدسوقى، ص١٩١.

(٣) الأدب المعاصر فى مصر، د./ شوقى ضيف، ص٢٣٣.

نطرب لكل معنى أدبى طربا متهورا، ولا مانع من أن ينقل إلينا الناقلون شيئا من عادات الغربيين ومصطلحاتهم فى مدينتهم، على أن ننظر إليه نظر من يريد التبسط فى العلم والتوسع فى التجربة والاختيار، لا على أن نقلدها وننقلدها وننتحلها قاعدتنا فى استحسان ما نستحسن من شئوننا، واستهجان ما نستهجن من عادتنا".[١]

وفى النهاية نؤكد موقف المنفلوطى المعتدل من المدنية الغربية بكلام الدكتور محمد أبوالأنوار الذى قال فيه إنه "لم يحارب المدنية على طول الطريق، ولم يكن عدوها لذاتها، بل للشوائب التى تجر على المجتمعات أخطر الأدواء، وعلى الوطنية أفدح الرزايا، وعلى الأديان أفظع الكوارث، وليس المنفلوطى كما زعم المستشرقون ومن تابعهم أنه عدوها دائما وأنه يراها خطر دائما".[٢]

---

(١) النظرات: ١/١٣٦.

(٢) مصطفى لطفى المنفلوطى حياته وأدبه، د./ محمد أبوالأنوار، ١/١٤٥.

المبحث الثاني: أدب العقيدة

كان المنفلوطي سليم العقيدة فاهما لها فهما صحيحا، وقد بدا هذا واضحا في كتابه النظرات، فنراه متمسكا بها مضحيا بكل شئ من أجلها لا يبغي بها بدلا حتى يلقى الله، يقول: "لو علمت أن مآرب هذه الدنيا وأغراضها: لا تنال إلا بترك شعيرة من شعائر الدين، أو العبث بفريضة من فرائضه لعفتها، واجتويتها، ونفضت يدى منها، وقلت لها كما قال على بن أبى طالب من قبل: إليك عنى غرى غيرى. ما لى بك حاجة.. لو علمت أن الوطنية ــ وهى أفضل ما حمل امرؤ بين جنبيه من خلال الخير ــ تعترض دون طريقى إلى آخرتى، أو تمتد حجابا بينى وبين ربى، لخرجت منها كما أخرج من ردائى. ثم خلصت إلى شعفة من شعاف الجبال، أو صخرة فى منقطع العمران أخلو فيها بنفسى من حيث لا أسمع دعاء غير دعاء القلب، أو نداء غير نداء الله، حتى يحين حينى وينقضى أجلى".(١)

فهذا الكلام يثبت سلامة عقيدته وقوتها وقد شهد بهذا أحد المخالطين له وهو الأستاذ أحمد حسن الزيات فقال عنه: "كان رقيق القلب عف الضمير سليم الصدر صحيح العقيدة نفاح اليد موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وإنسانيته".(٢)

وسوف نعرض لبعض مقالات المنفلوطى فى نطاق أدب العقيد، ولتكن بدايتنا فى هذا المجال مقاله الذى جعل عنوانه: "دمعة على الإسلام" وفيه أن أحد علماء الهند كتب إلى المنفلوطى رسالة يعرفه فيها أنه اطلع على مؤلف ظهر حديثا بلغة "التأميل" وهى لغة الهنود الساكنين بناقور بجنوب مدراس..موضوعه: تاريخ حياة السيد عبدالقادر الجيلانى. وفى الكتاب يظهر التخلف الذى أصاب عقيدة المسلمين، لأن صاحبه خلع على السيد عبدالقادر صفات وألقاب لا تليق إلا بمقام الألوهية كقوله: "سيد السماوات والأرض" و"النفاع الضرار"

---

(١) النظرات، ص٢٩٣، ط سنة ١٩١٣، مقال "الجامعة الإسلامية".

(٢) تاريخ الأدب العربى، أحمد حسن الزيات، ص٣٤١، ط دار المعرفة بيروت.

و"المتصرف فى الأكوان" و"المطلع على أسرار الخليقة" و"محيى الموتى" و"مبرئ الأعمى والأبرص والأكمه".

وقد أدرك المنفلوطى خطورة هذه الرسالة على عقيدة التوحيد، فنراه يستحث العين على البكاء والقلب على عدم الاستقرار بأسلوب يحرك المشاعر الدينية لمحاربه هذه البدع الشركية التى تضر بعقيدة التوحيد يقول: "أى عين يجمل بها أن تستبقى فى محاجرها قطرة واحدة من الدمع فلا تريقها أمام هذا المنظر المؤثر المحزن، منظر أولئك المسلمين، وهم ركع سجد على أعتاب قبر ربما كان بينهم من هو خير من ساكنه فى حياته. فأحرى أن يكون كذلك بعد مماته!

أى قلب يستطيع أن يستقر بين جنبى صاحبه ساعة واحدة فلا يطير جزعا حينما يرى المسلمين أصحاب دين التوحيد أكثر المشركين إشراكا بالله؛ وأوسعهم دائرة فى تعدد الآلة وكثرة المعبودات!". (١)

ويعرض لأهمية التوحيد فى حياة الناس، وأثره الطيب فى نفوس المسلمين الأوائل، ثم يوازن بين حالهم وما عليه مسلمو اليوم عندما اعتنقوا الشرك وانحرفوا عن الطريق الأقوم فأصبحوا أذلاء ضعفاء طمع فيهم الأعداء فغلبوهم واستباحوا بيضتهم يقول: "جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين، ويغرس فى قلوبهم الشرف والعزة والأنفة والحمية، وليعتق رقابهم من رق العبودية، فلا يزل صغيرهم لكبيرهم، ولا يهاب ضعيفهم قويهم، ولا يكون لذى سلطان بينهم إلا بالحق والعدل. وقد ترك الإسلام بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح فى نفوس المسلمين فى العصور الأولى. فكانوا ذوى أنفة وعزة وإباء وغيرة. يضربون على يد الظالم إذا ظلم، ويقولون للسلطان إذا جاوز حده.. قف مكانك ولا تغل فى تقدير مقدار نفسك، فإنما أنت عبد مخلوق لا رب معبود. وأعلم أنه لا إله إلا الله.

---

(١) النظرات: ٢/٦٧.

هذه هي صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد، أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطن تارة والظاهر أخرى، فقد زلت رقابهم، وخفقت رؤوسهم، وضرعت نفوسهم، وفترت حميتهم، فرضوا بخطة الخسف، واستناموا إلى منزلة الدنيا، فوجد أعداؤهم السبيل إليهم، فغلبوهم على أمرهم، وملكوا عليهم نفوسهم وأموالهم ومواطنهم وديارهم فأصبحوا من الخاسرين".[١]

ثم ينطلق من عاطفة مفعمة بالإيمان ويرى أن استرجاع ما ضاع من عقيدة التوحيد هو الطريق الأمثل للعودة إلى مجد الأمة وسعادتها وريادتها واسترداد قوتها يقول: "والله لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الدنيا وهناءتها إلا إذا استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدة التوحيد.. إن الله أغير على نفسه من أن يسعد أقواما يزدرونه ويحتقرونه ويتخذونه وراءهم ظهريا، فإذا نزلت بهم جائحة أو ألمت بهم ملمة. ذكروا الحجر قبل أن يذكروه، ونادوا الجزع قبل أن ينادوه".[٢]

ويتربع الحزن على سويداء قلبه لتلك الخرفات التي شاعت وانتشرت وشوهت عقيدة التوحيد، ويصرخ فلا يجد مغيثا ولا منجدا ولا منقذا لهذه الطامة التي حلت بالأمة، ويهجم على علماء الدين في الأقطار الإسلامية لتشويههم عقيدة التوحيد وتركهم لها وراء ظهورهم وانخراطهم في أمور شركية ما أنزل الله بها من سلطان، يقول: "بمن أستغيث؟ وبمن استنجد؟ ومن الذي أدعوه لهذه الملمة الفادحة! أأدعو علماء مصر وهم الذين يتهافتون على "يوم الكنسة"[٣] تهافت الذباب على الشراب؟ أم علماء الآستانة وهم الذين قتلوا جمال الدين الأفغاني فيلسوف الإسلام ليحيوا أبا الهدى الصيادي شيخ الطريقة الرفاعية! أم

---

(١) النظرات: ٦٨/٢.

(٢) نفس المرجع: ٦٩/٢.

(٣) يوم يذهب فيه العلماء إلى ضريح الإمام الشافعي للتبرك بكنس ترابه.

علماء العجم وهم الذين يحجون إلى قبر الإمام كما يحجون إلى البيت الحرام، أم علماء الهند وبينهم أمثال مؤلف هذا الكتاب".(١)

ثم يلوم قادة ورؤساء الأمة، ولا يقبل عذرهم في اعتناق الخرافات والبدع لعلمهم بباطلها ولأنهم يتلون كتاب الله ويقرؤون صفاته ونعوته، ويفهمون معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (سورة النمل: ٦٥) وقوله مخاطبا نبيه: ﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً﴾ (سورة الأعراف: ١٨٨) وإذا تعلل هؤلاء باتباع منهج السلف الصالح نقول لهم: أين أنتم من هؤلاء أصحاب العقائد النقية الذين ابتعدوا عن الشرك وما يفضي إليه، ويختم المقال بتشخيص الداء الذى جعلهم يتركون التوحيد بقوله: "والله ماجهلتم شيئاً من هذا، ولكنكم آثرتم الحياة الدنيا على الآخرة فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم، وانتقاض أمركم، وسلط عليكم أعداءكم يسلبون أوطانكم، ويستعبدون رقابكم ويخربون دياركم، والله شديد العقاب".(٢)

ويكتب مقالا عن "مدينة السعادة" وهو تصور خيالي لمدينة فاضلة "يعيش أهلها سعداء لا يشكون هما لأنهم قانعون. ولا يمسكون في أنفسهم حقدا لأنهم متساوون، ولا يستشعرون خوفا لأنهم آمنون".(٣)

ونرى في هذا المقال حوارا هادفا بينه وبين صاحب البيت الذى استضافه في هذه المدينة، وفحوى هذا الحوار تدور حول عبادة الله بأسلوب يعتمد على الإقناع والتأثير، يقول المنفلوطي: "فلما فرغنا من الصلاة التفت إلى صاحب البيت وقلت له: أراكم تتعبدون، فمن تعبدون؟ وتصلون، فمن الذى تدعون؟ قال: نعبد الله خالق هذه الكائنات ومدبرها؛ قلت: هل رأيتموه حتى عرفتموه قال نعم رأيناه في آثاره ومصنوعاته؛ رأيناه في السماء والماء، والفلك الدائم والنجم السائر، وفي أجنحة الحيوان وبذور النبات، ورأيناه في أنفسنا وعقولنا وأرواحنا قبل ذلك، قلت: ولم تعبدونه؟ قال: شكرا له على نعمة الخلق والرزق، وأن أحدنا

---

(١) النظرات: ٢/٦٩.

(٢) النظرات: ٢/٧٠.

(٣) نفس المرجع: ١/٧٥.

ليعنيه أن يشكر لصاحبه نعمته إذا أحسن إليه بجرعة أو أنعم عليه بمضغة؛ فأحرى به أن يشكر مانح المانحين، والمحسن إلى المحسنين، فقلت فى نفسى: لقد بلغ الرجل مرتبة الموحدين الصادقين، الذين يعبدون الله مخلصين له الدين".[1]

ومما يتصل بأدب العقيدة حديثه عن اليوم الآخر فى مقال بعنوان "يوم الحساب" وهو قصة منامية تعتمد على الخيال، وتعرض لحال رجل فى يوم القيامة، وما رآه من مشاهد نؤخذ منها العبرة والعظة لأنها تنقد بعض الأمور الأخلاقية والدينية الخاطئة فى حياتنا المعاصرة.

بدأ مقاله بمقدمة يسيطر عليها القلق والاضطراب الذى يتوافق مع الحالة الشعورية التى تسيطر على الإنسان فى موقف الحساب الربانى، ثم يلج إلى صلب مقاله واصفا حيرته واضطرابه، وتصفحه وجوه الواقفين عله يجد من يستأنس به فى وحدته، فلا يرى إلا خلقا غريبا، ومنظر عجيبا.

وفى خضم هذا اليأس والهم يتخيل فى هذا الموقف صورة صديق له يتلألأ وجهه تلألؤ الكواكب فى علياء السماء؛ وهنا يسأله عما فعل الله به؟ فيجيبه: حاسبنى حسابا يسيرا ثم غفر لى، وها أنذا ذاهب إلى الجنة، ويعجب لما صار إليه حال الرجل؛ لأنه كان لا يتقى مأثما، ولايهاب منكرا، وهنا يرفع الحجاب بين الناس، وينظر إليه هذا الصديق نظرة العاتب اللائم مبتسما إليه بابتسامة علم منها أن الرجل قد ألم بما أضمره فى نفسه، ويزيل عجبه بقوله: "لا تعجب لأمر فى هذه الدار فكل ما فيها عجب، واعلم أن الله حاسبنى على كل ما كنت اجترح من الآثام فى الدار الأولى، إلا أنه وجد لى فى جريدة حسناتى حسنة ذهبت بجميع السيئات"[2] ثم كشف له عنها وهى تتمثل فى إحسانه وإقاله عثرة جاره الثرى الذى نكبه الدهر فى ماله، وكيف احتال فى سرية تامة حتى لا يريق ماء وجه جاره فى إيصال بعض الدنانير عن طريق خادمه إلى الرجل كل يوم من

---

(١) نفسه: ١/٧١.

(٢) النظرات: ١/١٣٨.

حيث لا يعلم بمأتاها، وقد أصاب الإحسان هنا موضعه، وخلص من شائبة الرياء، ليكون سببا فى غفران ذنوب صاحبه واستحقاقه لدخول الجنة.

ثم رآه يتحدث عن الشفاعة فاضحا تجار الدين الذين غشوا الناس وخدعوهم بالآمال الكاذبة، وبين أنها مظهر من مظاهر التكريم يختص الله به من يشاء من عباده، وهو فى الوقت نفسه يحارب الشرك ولا يعتقد فى شفاعة الأولياء، ويستنكر زيارة أضرحتهم والتوسل إليهم، وها هو يقول مخاطبا صاحبه السعيد: "أنت من السعداء، فهل تستطيع أن تشفع لى أو تطلب لى شفاعة من ولى من الأولياء أو نبى من الأنبياء؟ قال: لا تطلب المحال، ولا تصدق كل ما يقال: فقد كنا مخدوعين فى الدار الأولى بتلك الآمال الكاذبة التى يبيعها لنا تجار الدين بثمن غال ولا يتقون الله فى غشنا وخداعنا، وما الشفاعة إلا مظهر من مظاهر الإكرام والتبجيل يختص به الله بعض المقربين، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه. ولا يأذن بالشفاعة لأحد إلا إذا كان بين أعمال المشفوع له أو فى أعمال سريرته ما يقتضى إيثاره بالمغفرة على غيره من العصاة والمذنبين، والله سبحانه وتعالى أجل من العبث وأرفع عن المحاباه".[١]

ويعرض بعد ذلك لصورتين من صور الشقاء فى ساحة القيامة الأولى لرجل من أصحاب الحيل الشرعية، و"ذنبه أنه كان يعمد إلى الأحكام الشرعية فينتزع منها حكمها وأسرارها، مستندا على تقليد أبى حنيفة أو غيره من كبار الأئمة، وأبوحنيفة أرفع قدراً وأهدى بصيرة، من أن يتخذ هزؤا وسخرية، وأن يكون ممن يهدمون الدين باسم الدين".[٢] والثانية لصورة رجل يتظاهر بالولاية والتقى وهو يتاجر بالدين، وقد صور المنفلوطى هذا المشهد بقوله: "أيكون هذا من أشقياء الآخرة، وقد كان بالأمس من أقطاب الأولى، فقال لى صاحبى: إن هذا الذى كنت تحسبه فى أولاه من الأقطاب كان أكبر تاجر من تجار الدين، وما

---

(١) نفسه: ١/١٣٩.

(٢) النظرات: ١/١٤٠.

هذه اللحية والسبحة والهمهمة إلا حبائل كان ينصبها لاصطياد عقول الناس وأموالهم، ولكن الناس لا يعلمون".[١]

ثم يؤكد بعد ذلك على عقيدة الإنسان ونيته فى العمل فالله يحاسب الناس على قلوبهم لا على جوارحهم، ويسألهم عن نياتهم لا عن أفعالهم، وأن السعادة فى الصدق والشقاء فى الكذب.

ومما يتصل بأدب العقيدة حديثه عن السعادة فى مقال له بعنوان "الصياد" والذى عالج فيه مشكلة الإنسان فى البحث عن السعادة، وهى فى نظر الصياد تكمن فى علاقة العبد بربه، وهذه العلاقة تتجلى فى العبادة الحقة لله، والإخلاص فى توحيده، والابتعاد عن الشرك، وبهذا يصل الإنسان إلى درجة اليقين التى تحقق له السعادة بين جوانب نفسه الفاضلة، وتجعله راضيا بقضاء الله وقدره، يقول المنفلوطى على لسان الصياد: "لا علاقة بينى وبين أحد فى هذا العالم إلا تلك العلاقة بينى وبين ربى فأنا أعبده حق عبادته وأخلص فى توحيده، فلا أعتقد ربوبية أحد سواه، ولا أكتمك يا سيدى أننى لا أستطيع الجمع بين توحيد الله والاعتراف بالعظمة لأحد من الناس، ولقد أخذ هذا اليقين مكانه من قلبى.. وكان سببا فى عزائى وراحة نفسى من الهموم والأحزان، فما نزلت بى ضائقة ولا هبت على عاصفة من عواصف هذا الكون إلا انتزعنى من بين مخالبها وهونها على، حتى لا أكاد أشعر بوقعها، وكيف أتألم لمصاب أنا أعلم حق العلم أنه مقدور لا مفر منه، وأننى مأجور عليه على قدر احتمالى إياه، وسكونى إليه؟"[٢]

والمنفلوطى فى أدبه العقدى يحارب الإلحاد فى الدين، وفساد العقيدة، وكثير من مقالاته تفصح عن تهجمه الشديد على الإلحاد، وقد برز هذا بوضوح فى تتمة الحوار الذى أداره المنفلوطى بين الشيخ محمد عبده وقاسم أمين، يقول ثانيهما للأول: "أنا أدرت أن أنصح للمرأة فأفسدتها كما تقول، وأنت أردت أن تحيى الإسلام فقتلته، إنك فاجأت جهلة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والمقاصد العالية الشريفة فأرادوا غير ما أردت؛ وفهموا غير ما

---

(١) نفسه:١/ ١٤١.

(٢) النظرات: ١/١٥٢.

فهمت فأصبحوا ملحدين، بعد أن كانوا منحرفين، وأنت تعلم أن دينا خرافيا خير من لا دين. أولت لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التأويل قاعدة حتى أولوا الملك والشيطان والجنة والنار! وبينت لهم حكم العبادات وأسرارها وسفهت لهم رأيهم في الأخذ بقشورها دون لبها، فتركوها جملة واحدة وقلت لهم: إن الولي إله باطل، والله إله حق؛ فأنكروا الألوهية حقها وباطلها".[1]

(١) نفس المرجع: ١٤٢ و ١٤٣.

المبحث الثالث: فكرة جديدة للإعجاز

للمنفلوطى بعض التصورات المتميزة حول بعض القضايا الإسلامية، ففى مقاله عن الهجرة، "يتحدث عن فكرة جديدة للإعجاز الذى ينبغى الاهتمام به وتقديمه للناس، وهو الإعجاز الذى يتمثل فى صفات الرسول (ﷺ) حيث إن هذه الصفات التى يتميز بها أخلاقيا ونفسيا، هى التى تعطى الأنموذج الأرقى للإعجاز، فهى التى بهرت العرب أكثر من معجزاته الأخرى"[1] يقول: "إن فى أخلاق النبى ﷺ، وسجاياه التى لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ما يغنيه عن كل خارقة تأتيه من الأرض أو السماء، أو الماء أو الهواء.

إن ما يبهر العرب من معجزات علمه وحلمه وصبره واحتماله وتواضعه وإيثاره، وصدقه وإخلاصه، أكثر مما يبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وإنشاق القمر، ومشى الشجر، ولين الحجر؛ وذلك لأنه ما كان يريبهم فى الأولى ما كان يريبهم فى الأخرى من الشبه بينها وبين عرافة العرافين وكهانة الكهنة، وسحر السحرة، فلولا صفاته النفسية وغرائزه وكمالاته ما نهضت له الخوارق بكل ما يريده، ولا تركت له المعجزات فى نفوس العرب ذلك الأثر الذى تركته[2]، ذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[3]

ثم فصل القول فى بعض أخلاقه مدللا من خلالها على عظمة هذا النبى، الذى مدحه ربه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[4] يقول المنفلوطى: "كان النبى ﷺ شجاع القلب، فلم يهب أن يدعو إلى التوحيد قوما مشركين يعلم أنهم غلاظ جفاف شرسون متنمرون، يغضبون لدينهم غضبهم لأعراضهم، ويحبون آلهتهم حبهم لأبنائهم.. كان حليما سمح الأخلاق فلم يزعجه إن كان قومه يؤذونه

---

(١) مدرسة البيان فى النثر الحديث، د./ حلمى محمد القاعود، ص ١٥٧، ط دار الاعتصام.

(٢) النظرات: ١/١٢٧.

(٣) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٤) سورة القلم: ٤.

ويزدرونه ويشعثون[١] منه ويضعون التراب على رأسه، ويلقون علـــى ظـــهره أمعاء الشاة وسلى[٢] الجزور، وهو في صلاته، بل كان يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

كان واسع الأمل كبير الهمة صلب النفس، لبث في قومه ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله فلا يلبي دعوته إلا الرجل بعد الرجل، فلم يبلغ الملل من نفسه، ولم يخلص اليأس إلى قلبه، فكان يقول: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمـــر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته".[٣]

ويبقى في مقال عبرة الهجرة بعض التصورات التي لها دلالة على قـــدرة الرجل العقلية الواعية، وفهم حقيقي لجوهر الإسلام، ولعل أهمها ما يلي:

أولاً: البيئة وأثرها في نشر الدعوة الإسلامية، وانتقاله من مكة التـــي أبـــت أن تطلع شمس الإسلام من مشرقها، وذهابه إلى المدينة وهي الأرض الخصبـــة لنمو شجرة الإسلام ونشر ظلالها على جميع العالم، وعلى هذا فقـــد انتقـــل الإسلام بالهجرة إلى طور عظيم اتسم بالحركة والظهور، يقول المنفلوطـــي: "وما زال هذا شأنه حتى علم أن مكة لن تكون مبعث الدعوة، ولا مطلع تلك الشمس المشرقة، فهاجر إلى المدينة فانتقل الإسلام بانتقاله من السكون إلـــى الحركة، ومن طور الخفاء إلى طور الظهور".[٤]

ثانياً: حرصه على إظهار أيام الإسلام في الصورة اللائقة، وقـــد تجلـــى ذلـــك واضحا فيما أبداه من تعليل لاتخاذ يوم الهجرة مبدء التـــاريخ الإســـلامي؛ "لأنها أكبر مظهر من مظاهره، وكانت عيدا يحتفل به المسلمون فـــي كـــل عام؛ لأنها أجمل ذكرى للثبات على الحق والجهاد في سبيل الله".[٥]

---

(١) يقول شعث فلان من فلان: تنقصه

(٢) السلى للدواب بمنزلة المشيمة للإنسان.

(٣) النظرات: ١/١٢٧ و١٢٨.

(٤) نفس المرجع، ص١٢٨.

(٥) [illegible]

إن اختيار المنفلوطى يوم الهجرة بداية للتاريخ الإسلامى يؤكد روعة هذا اليوم، وقيمته فى تاريخ الدعوة الإسلامية المباركة، وقد تأثر العقاد بالمنفلوطى وسار على هديه فنراه وهو يتحدث عن التاريخ الهجرى يقول: "فالرجل الذى اختار يوم الهجرة بدء التاريخ الإسلامى قد كان أحكم وأعلم بالعقيدة والإيمان ومواقف الخلود من كل مؤرخ، وكل مفكر يرى غير ما رآه؛ لأن العقائد إنما تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب، كل إنسان يؤمن حين يتغلب الدين، وتفوز الدعوة أما النفس التى تعتقد حقا ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقا، فهى النفس التى تؤمن فى الشدة وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء".(١)

وإذا كان العقاد قد تأثر بالمنفلوطى فى هذا الأمر فإننا نراه أعمق وأدق من صاحبه، لأنه حاول مناقشه المعارضين، وبسط الأسباب التى رشحت يوم الهجرة ليكون بدءا لتاريخ الإسلام، ولم ترشح غيره من الأيام كيوم بدر ويوم ميلاد النبى ﷺ، ويوم حجة الوداع. كل هذه أيام صالحة لأن يتخذها المسلمون بداية لتاريخهم، لكن العقاد يجيب على ذلك بأن هذه الأيام مع قيمتها وأثرها ينقصها معنى التضحية والفداء، ولم تتسم بطابع الشدة والبلاء الذى تمتحن به قلوب الرجال، وتبتلى به طبائع الأبطال، أما يوم الهجرة فهو يوم الشدائد والأهوال، انتصرت فيه العقيدة وتجلت فيه الإرادة القوية، والهمة العالية والإيمان العميق.

ثالثاً: موقف قومه من هجرته فقد كانوا كارهين مهاجرته "لاضنا به، بل مخافة أن يجد فى دار هجرته من الأعوان والأنصار ما لم يجد بينهم، كأنما يشعرون بأنه طالب حق، وأن طالب الحق لابد أن يجد بين المحقين أعوانا وأنصارا".(٢)

رابعاً: الدعوة إلى أخذ العبرة والعظة والأسوة الحسنة من حياة النبى ﷺ، لا من حياة فلاسفة اليونان وحكماء الرومان وعلماء الأفرنج، لأن فى تاريخه ﷺ حياة شريفة مملوءة بالجد والعمل والبر والثبات والحب والرحمة، والحكمة والسياسة، والشرف الحقيقى والإنسانية الكاملة.

---

(١) راجع حديث العقاد عن التاريخ الهجرى فى كتابه عبقرية محمد ﷺ.

(٢) النظرات: ١/١٢٩.

المبحث الرابع

الروح الإسلامية الإصلاحية في مقالاته الاجتماعية

بدت هذه الروح عند المنفلوطي في صورتين:

الأولى: حملته على رجال الدين والسياسة الذين جبنوا عن مواجهة الباطل ومقاومته وإصلاحه، وشغلوا الناس بقشور الدين، وضيعوا أوقاتهم في بدع باطلة ومعتقدات خرافية، وقد اعتمد في نقده لهؤلاء على أساليب الاستفهام الإنكارية، وقد مكنته هذه الأساليب من تصوير مراده فكانت وسيلة فنية بارعة، يقول المنفلوطي في مقاله عن "المؤتمر الإسلامي": "تبئني عن الإسلام أين مقره ومكانه؟ وأين مسلكه ومضطربه؟ وفي أي موطن من المواطن حل، ومعهد من المعاهد نزل؟

أفي الحانات والمواخير التي يغص بها الفضاء، وتئن منها الأرض والسماء، والتي ينتهك فيها المسلمون حرمات دينهم بلا خجل ولا حياء؟ كأنما يشربون الماء الزلال، ويغشون البضع الحلال، ولقد هان عليهم أمر أنفسهم حتى لو وجدوا بينهم من يرى التقية في عمله، أو الاحتشام في أمره، سموه جبانا جامدا، أو متكلفا باردا، كل ذلك على مرأى ومسمع من الحكومة الإسلامية، والمعاهد الدينية، والقضاءين الشرعي والنظامي؟

أم في حوانيت الباعه حيث الغش الفاضح، والغبن الفاحش، مزخرفا بالأقوال الكاذبة، والأيمان الباطلة؟

أم في مجالس الأحكام حيث للدينار الأحمر السلطان الأكبر على سلطان العدو سلطان الذمة وسلطان الشرائع، اللهم إلا ما كان من تلك الألواح المكتوب فيها (العدل أساس الملك) أو ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[1]

أم في معاهد الدين حيث يتلقى المتعلمون الدين جسما بلا روح، وعلما بلا عمل، كأنما يتلهون بدراسة إحدى الشرائع الدائرة، أو أحد الأديان الغابرة، وحيث يتلقون كشكولا عجيبا وخلقا غريبا من الأكاذيب، والترهات، فلا تكاد

---

(١) النساء: ٥٨.

تسمع من أفواههم إلا حديثا موضوعا، أو قولا مصنوعا، أو خرافة تاريخيـــة، أو بدعة دينية، وحيث يقضون حياتهم فى المنـــاظرات والمجـــادلات، والتحاســد والتباغض والتقاطع والتدابر، وهى بعينها الأخلاق والرذائل التى مـــا جـــاءت الأديان إلا لمحاربتها، والقضاء عليها، فهم يهدمون من حيث يظنون أنهم يبنون، ويسيئون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

لم فى مجالس المتصوفة حيث الألعاب الجمبازية، والحركات البهلوانيـــة، والسرقات باسم العادات، وانتهاك الحرمات بعنوان البركات".[١]

ثم نراه يرسم الطريق الصحيح للإصلاح فيدعو إلى تنقيـــة العقـــائد مـــن الشوائب التى علقت بها، وتربية الأولاد منذ نعومة أظفـــارهم تربيـــة إســـلامية ويحذر أهل الدين والمتعلمين من أن يقعوا فريسة النظريات الفلسفية والنزعـــات المادية، يقول: "إن أراد المصلحون لأنفسهم نجاحا، وللإسلام صلاحا، فليبـــدأوا عملهم بتهذيب العقائد الدينية، وتربية النشئ الحديث تربية إســـلامية، لا تربيـــة مادية، أى أنهم يدخلون إلى الإصلاح من باب الدين لا من باب الفلسفة، حتـــى يجمعوا للمسلمين بين صلاح حالهم ومآلهم، ودنياهم وآخرتهم، وحتى يكون الدين هو الزاجر والمؤدب، والمعلم والمهذب".[٢]

ثم نراه بعد ذلك ينبه على أمر هام له خطورته يقول: "والإسلام وإن كـــان دين العقل والفطرة والإصلاح، إلا أن الخطر كل الخطر على المسلمين أن يكون فى نظرهم تابعا للعقل، وأن يكون العقل الحكم بينهم وبينه، والخير كل الخير فى أن يكون الدين حاكما والعقل مفسرا ومبيناً، فإذا تم ذلـــك للمصلحيـــن بـــالرفق والأناة، والحكمة والسياسة، فقد تم لهم كل شئ، وتم للمسلمين ما يريدونه مـــن الجامعتين: الدينية والسياسة".[٣]

وفى مقاله "دمعة على الإسلام" يندد برجال الدين الذين يســـتغلون جـــهل العامة لأجل مصالحهم فيقول لهم: "والله ما جهلتم شيئاً من هذا ، ولكنكم آثرتـــم

---

(١) النظرات: ١٤٧/٣ و١٤٨.

(٢) نفس المرجع، ص١٤٨.

(٣) النظرات، ص١٤٨.

الحياة الدنيا على الآخرة فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم، وانتقاض أمركم، وسلط عليكم أعدائكم يسلبون أوطانكم ويستعبدون رقابكم ويخربون دياركم، والله شديد العقاب".[١]

وفي مقاله "السياسة" ينقد أهل السياسة الذين انحرفوا عن الطريق القويم فقست قلوبهم ولم تتأثر بالبائسين والمنكوبين، ولبسوا ثوب النفاق، وتحلوا بالكذب، وأصبحت الرذيلة عندهم فضيلة، يقول: "هل السياسي إلا رجل قد عرفت أمته أنه لا يوجد بين أفرادها من هو أقسى منه قلبا، ولا أعظم كيدا، ولا أكثر دهاء ومكرا، فنصبته للقضاء على الأمم الضعيفة، وسلبها ما وهبها الله من الحسنات وأجزل لها من الخيرات.

أيستطيع الرجل أن يكون سياسياً إلا إذا كان كاذبا في أقواله وأفعاله، يبطن ما لا يظهر ويظهر ما لا يبطن، ويبسم في موطن البكاء، ويبكي في مواطن الابتسام؟

أيستطيع الرجل أن يكون سياسيا.. إلا إذا عرف أن بين جنبيه قلبا متحجرا لا يقلقه بؤس البائسين ولا تزعجه نكبات المنكوبين؟[٢]

الثانية: شعوره وتألمه لرؤية المظلومين والمضطهدين والبائسين والمنكوبين، وقد برز هذا واضحا في كثير من مقالاته الاجتماعية التي سادت فيها الروح الإسلامية، ولعله بهذا أراد أن يؤدي جانبا هاما من "رسالته الاجتماعية التي تعنى في بعض غايتها بترقيق القلوب وتهذيب النفوس، لتكون خيرة دائما من أجل الآخرين"[٣]، وقد رأينا هذا واضحا في مقال له عن "الرحمة" فقد بين هذه الرسالة بقوله: "لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا مغبون ولا مهضوم.. ولأقفرت الجفون من المدامع.. ولا طمأنت الجنوب في المضاجع.. ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام".[٤]

---

(١) السابق: ٢/٧٠.

(٢) النظرات: ٢/٧٢.

(٣) مصطفى لطفي المنفلوطي حياته وأدبه، د./ محمد أبوالأنوار، ٢/٢٧٦.

(٤) النظرات: ١/٨٦.

ثم نراه يعدد أوامره للإنسان بالرحمة مؤكدا على رحمة الأرملة والمرأة الساقطه، والزوجة والولد والجاهل والحيوان والطير، وقد سلك فى هذا أسلوب الإقناع الذى اعتمد على الموضوعية القائمة على التعليل، يقول: "ارحم الزوجة أم ولدك وقعيدة بيتك ومرآة نفسك وخادمة فراشك؛ لأنها ضعيفة، ولأن الله قد وكل أمرها إليك، وما كان لك أن تكذب ثقته بك.

أرحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فإنك إلا تفعل قتلته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين.

أرحم الحيوان لأنه يحس كما تحس ويتألم كما تتألم ويبكى بغير دموع، ويتوجع ولا يكاد يبين".(١)

ويختم هذا المقال بخاتمة اتسمت بحسن الانتهاء والتموج الموسيقى الذى بدا فى سجع جميل اتسم بالعفوية يقول: "أيها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء، وامسحوا دموع الأشقياء، وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء".(٢)

وقد ساقه شعوره بالمظلومين والمنكوبين والبائسين إلى تقرير مبدأ إسلامى هام، وهو العدالة الاجتماعية بين طوائف الأمة المختلفة، وقد ركز فى دعوته الإصلاحية فى هذا المجال على الانتصار للفقراء، ووجه حملات قاسية وصريحة، ضد الأغنياء الذين استغلوا الأموال ظلما وعدوانا، واستذلوا الناس باطلا وافتراء".(٣)

ولعل من أهم النماذج فى هذا المقام مقاله عن "الغنى والفقير" الذى صور فيه شكوى كل منهما من ألم بطنه، ولكن البون بعيد فالفقير يشكو ألم الجوع، والغنى يشكو ألم البطنة، وهنا يعلوه العجب ويحل هذا الأمر بقوله: "لو أعطى ذلك الغنى الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سقما ولا ألماً، لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته، ويطفئ غلته؛

---

(١) نفس المرجع، ص٨٩.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) مصطفى لطفى المنفلوطى حياته وأدبه، د./ محمد أبوالأنوار، ٢٨٢/١.

ولكنه كان محبا لنفسه، مغاليا بها، فضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير فعاقبه الله على قسوته بالبطنة، حتى لا يهنأ للظالم ظلمه ولا يطيب عيشه".(١)

ثم يبرز المنفلوطي بأسلوب ساخر باك صورة لحياة الأغنياء وما فيها من ترف كبير، ويعرض صورة أخرى لحياة الفقراء وما فيها من بؤس وشقاء وحرمان، ثم يبين بعد هذا كيف تجرد بعض الأغنياء من إنسانيتهم لعدم مراعاتهم شعور الفقراء وتباهيهم بما أنعم الله عليهم، وكان الأجدر بهم ستر هذه النعم حتى لا يكسروا قلوب الفقراء، يقول المنفلوطي: "ما أظلم الأقوياء من بني الإنسان، وما أقسى قلوبهم، ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير، ولا يقلقه في مضعجه أنه يسمع أنين جاره، وهو يرعد بردا وقرا، ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام قديده وشواءه حلوه وحامضه ولا ينغص عليه شهوته علمه. أن بين أقربائه وذوى رحمه من تتواثب أحشاؤه شوقا إلى فتات تلك المائدة ويسيل لعابه تلهفا على فضلاتها. بل إن بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه ولا يعقد الحياء لسانه، فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته، وربما استعان به على عد ما تشتمل خزائنه من الذهب وصناديقه من الجوهر وغرفه من الأثاث والريش، ليكسر قلبه وينغص عليه عيشه ويبغض إليه حياته، وكأنه يقول له في كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته: أنا سعيد لأني غني، وأنت شقي لأنك فقير".(٢)

وقد قوى من نزعته الإسلامية في جانب تحقيق العدالة الاجتماعية تأثره بالأدب الفرنسي الرومانسي، "المؤمن بفضيلة الفقراء ورذيلة الأغنياء، الداعي إلى تحقيق العداله، الثائر على النظام الاجتماعي الذى لا تكافؤ فيه بين أفراد مترفين معدودين وبين ملايين الكادحين المسخرين".(٣)

---

(١) النظرات: ٦٥/١.

(٢) نفس المرجع: ٦٦/١ و٦٧.

(٣) القصة القصيرة في مصر منذ نشأتها حتى سنة ١٩٣٠، لعباس خضر، ص٥٥، ط الدار القومية للطباعة والنشر، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.

لكننا نعود فنقول إن هذا التأثير ليس على إطلاقه ونذهب فيه مذهب الدكتور محمد أبوالأنوار الذى يرى أن "تأثرات المنفلوطى بالرومانسية ليست واسعة النطاق فيما يتصل بالتكوين النفسى وبالآراء والأفكار، ولكن أكثر شبه يربطه بهم هو التوهج العاطفى دون أن يكون ثمة تطابق بينه وبينهم فى الدوافع والغايات لهذا التوهج، وكل الذى حدث أن المنفلوطى أعجب ببعض آرائهم وتصوراتهم واتجاهاتهم، فأخذها لأنها وافقت مزاجه الشخصى وتكوينه العاطفى، وهى فى الوقت ذاته لم تتعارض مع مفهوماته الدينية والاجتماعية. ولذلك فليس من الصواب أن نصف المنفلوطى بأنه رجل رومانسى ونقصد دلالة الاسم بمعناه المذهبى بل نقصد فقط الشبه فى مجرد التوهج العاطفى المختلف الدوافع والغايات مع اللقاء أحيانا فى بعض الآراء والأفكار والتصورات".(١)

"وقد كان لهذا الأدب الحزين الباكى أحسن الوقع فى نفوس معاصريه، إذ كان الناس يعانون من ضغوط كثيرة، على رأسها الاحتلال الأجنبى الذى كان يشل كل حركة نحو التقدم، ويعجز الأفراد عن المقاومة فيلجأون إلى التنفيس بمثل البكاء والدموع التى يحدثنا عنها المنفلوطى".(٢)

وقد أخذ عليه العقاد "أن عطفه على البائسين فى المجتمع لا يدل على إحساس عميق بما يعترى النفوس ويخامر الضمائر. فالمصائب التى يصفها ليست مما يسمى مصائب النفس الإنسانية وآلام الضمائر الحية، بل هى مصائب جسيمة يبصرها الأعمى ويسمعها الأصم، ويجتمع فيها الجوع والداء، والذل والموت بلا افتراق أو تنويع(٣). وجاء فى الديوان "أنه كان متصنعا فى عاطفته يقول ما لا يشعر به أو يؤمن به، وإنما يتعمل ويتكلف ويتظاهر".(٤)

والواقع أن ذلك ما لا يشعر به قارئ أقواله، بل بالعكس يرى أنه أمام رجل ذى عقيدة قوية صريحة. ولا نستغرب أن يكون المنفلوطى قد اصطنع

---

(١) مصطفى لطفى المنفلوطى حياته وأدبه، د./ محمد أبوالأنوار، ٢٩٣/٢.

(٢) القصة القصيرة فى مصر لعباس خضر، ص٥٦.

(٣) مراجعات فى الأدب والفنون للعقاد، ص١٨٠-١٨٢، ط بيروت الأولى، سنة ١٩٦٦.

(٤) الديوان للعقاد والمازنى، ١١/٢، ط دار الشعب الثالثة.

كثيرا من الحوادث التى يصورها فى شكل الحقيقة، أو أن يكون قد شط به الخيال ولم يوفق أحيانا فى التصوير المناسب. ولكن ذلك لا يذهب بإخلاصه وحرارة دعوته. "وليس من الإنصاف أن نرى كاتبا يحمل رسالة إلى الناس ويقضى حياته فى نشر هذه الرسالة متحمسا لها، حريصا على أدائها، ثم نتهمه بالتصنع العاطفى لاستجلابه من عالم الخيال أمثلة يرى هو فيها تصويرا للواقع وإيضاحا للحقيقة".(١)

والحق أن الصواب جانب ما جاء به العقاد، وما جاء أيضاً فى كتاب الديوان؛ لأن المنفلوطى كان صاحب إحساس عميق، ولم يكن متصنعا ولا متكلفا، بل كان ذا حساسية مفرطة شديدة العبرة والانفعال، وخير دليل على ذلك ما جاء فى مقدمة نظراته، يقول: "ولا أدرى ما الذى كان يعجبنى فى مطالعاتى من شعر الهموم والأحزان، ومواقف البؤس والشقاء، وقصص المحزونين والمنكوبين خاصة، فقد كان يعجبنى كثيرا ويبكينى أحر بكاء وأشجاه شقاء المهلهل فى الطلب بثأر أخيه، وشقاء امرئ القيس فى الطلب بثأر أبيه.. وبكاء الشريف على المنازرة فى خرائب الحيرة.. وذل أبى فراس فى سجنه.. وبكاء النبى ﷺ عندما سمع قيس بن عاصم يحدث أنه كان يئد بناته فى الجاهلية.. وأمثال ذلك من مواقف البؤس ومصارع الشقاء، كأنما كنت أرى أن الدموع مظهر الرحمة فى نفوس الباكين؛ فلما أحببت الرحمة أحببت الدموع لحبها؛ أو كأنما كنت أرى أن الحياة مواطن البؤس والشقاء ومستقر الآلام والأحزان، وأن الباكين هم أصدق الناس حديثا عنها، وتصورا لها، فلما أحببت الصدق أحببت البكاء لأجله؛ أو كأنما كنت أرى أن بين حياتى وحياة أولئك البائسين المنكوبين شبها قريبا وسبيلا متصلا؛ فأنست بهم وطربت بنواحهم طرب المحب بنوح الحمائم وبكاء الغمائم، أو كأنما كنت فى حاجة إلى بعض قطرات من الدمع أتفرج بها مما أنا فيه، فلما بكى الباكون وبكيت لبكائهم وجدت فى مدامعهم شفاء نفسى وسكون لوعتى؛ أو كأنما كنت أرى أن جمال العالم كله فى الشعر وأن

---

(١) الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضة الأدبية الحديثة، لأنيس المقدسى، ص٢٩٢.

الشعر هو تفجر من صدع الأفئدة الكليمة فجرى من عيون الباكين مع مدامعهم، وصعد من صدورهم مع زفراتهم".[١]

فحديث المنفلوطي يؤكد صدق الرجل في عاطفته، ويدحض ما ذهب إليه العقاد والمازني، وقد برز صدقه واضحا في تعبيره عن شعور جمهرة الناس بالحزن والأسى "عندما كان الاحتلال جاثما، والحريات مكبوته، والبلد يستغلها نفر قليل، يمتصون دماء الشعب، ويرهقونه إرهاقا عنيفا، والمدنية الغربية تزحف بمفاسدها، وهنا تصطدم مثاليته الأخلاقية والدينية بواقعه المليئ بالمآسي، وكان الناس في حاجة إلى من يعبر عن مشاعرهم هذه، ويصف لهم في مبالغة وعطف ما يعانونه من حرمان وكبت، وما يستشرى في مجتمعهم من مفاسد، ولذلك أحبوا منه هذه النغمة وشجعوه عليها".[٢]

---

(١) راجع مقدمة النظرات من ص ١٦ إلى ص٢٠ بتصرف.

(٢) نشأة النثر الحديث وتطوره، لعمر الدسوقي، ص٢٦٤ بتصرف.

المبحث الخامس

ثورته على التعصب الديني وشيوع روح التسامح الإسلامي

المنفلوطي يمثل المسلم الفاهم لأخلاق الإسلام وتعاليمه السمحة، وهذا مكنه من الإنصاف وعدم التعصب، وقد برز هذا واضحا في مقال له بعنوان "لا همجية في الإسلام" الذي كتب بمناسبة ما أشيع من هياج المسلمين على المسيحيين في ولاية أطنة من ولايات الدولة العثمانية وقتلهم إياهم وتمثيلهم بهم، وفيها يحاول تصحيح انحراف بعض المعتقدات التي جعلتهم يرتكبون هذه الجريمة الشنعاء مبينا لهم رحمة الله بخلقه وفضل إحسانه عليهم، وبين رحمته وإحسانه محال أن يأمر بسلب الروح التي وهبها للإنسان، لأنه كرمه، وأمرنا باحترام معتقده ومجادلته بالتي هي أحسن، وجعل الخلاف بين الناس سنة لا يمكن تحويلها، وليكن لهم العبرة في صحابة رسول الله في صدر الإسلام عندما حاربوا المسيحيين، فلم يكن حربهم لأجل التشفي والانتقام، وإنما كان لحماية الدعوة الإسلامية.

والمنفلوطي لا يترك لهؤلاء مجالا لتبرير صنيعهم بل يصفعهم ببعض الأساليب التي تلجمهم، وتجعلهم يذعنون لحديثه، يقول: "في أي كتب من كتب الله، وفي أي سنة من سنن أنبيائه ورسله، قرأتم جواز أن يعمد الرجل إلى الرجل الآمن في سربه، والقابع في كسر بيته، فينزع نفسه من بين جنبيه، ويفجع فيه أهله وقومه، لأنه لا يدين بدينه، ولا يذهب مذهبه في عقائده. لو جاز لكل إنسان أن يقتل كل من يخالفه في رأيه ومذهبه، لأقفرت البلاد من ساكنيها.. لو أنكم قضيتم على كل من يتدين بدين غير دينكم حتى أصبحت رقعة الأرض خالصة لكم، لانقسمتم على أنفسكم مذاهب وشيعا، ولتقاتلتم على مذهبكم تقاتل أرباب الأديان على أديانهم، .. أيها المسلمون: ما جاء الإسلام إلا ليقضي على مثل هذه الهمجية والوحشية التي تزعمون أنها الإسلام، ما جاء الإسلام إلا ليستل

من القلوب أضغانها وأحقادها، ثم يملؤها بعد ذلك حكمة ورحمة فيعيش الناس في سعادة وهناءة".[١]

وتعلو ثورته ويتألم لرؤية القتلى من الأطفال والنساء والشيوخ، فيقول: "عذرتكم بعض العذر لو لم تقتلوا الأطفال الذين لا يسألهم الله عن دين ولا مذهب قبل أن يبلغوا سن الحلم، والنساء الضعيفات اللواتى لا يحسن في الحياة أخذا ولا ردا، والشيوخ الهالكين الزاحفين وحدهم إلى القبور قبل أن تزحفوا إليهم، وتتعجلوا قضاء الله فيهم. أما وقد أخذتم البرئ بجريرة المذنب فأنتم مجرمون لا مجاهدون، وسفاكون لا محاربون".[٢]

ويتجلى تسامحه الإسلامي في بكاء غير المسلمين وذكر مآثرهم وفضائلهم، وقد بدا هذا واضحا في مقاله الذى كتبه عن "جورجى زيدان"، الذى نعته فيه بأجمل الصفات، وأثنى عليه ثناء حسناً، مشيداً بحياده التام في كتاباته عن تاريخ الإسلام، وجهوده العلمية التى أثرت في ميدان الأدب، ودافع عنه دفاعا عظيما، وردّ على الذين تعصبوا عليه من أبناء المسلمين، يقول عنه: "كان شريف النفس بعيد الهمة، متجملا بصفات المؤرخ الحقيقى الذى لا يتشيع ولا يتحيز. ولا يداهن ولا يجامل، ولا يترك لعقيدته الدينية مجالا للعبث بجوهر التاريخ وحقائقه، فكتب وهو المسيحى الأرثوذكى تاريخ الإسلام في كتبه ورواياته كتابة العالم المحقق الذى لا يكتم الحسنة إذا رآها ولا يشمت بالسيئة إذا عثر بها، فاجتمع بين يديه في مجالس علمه من أبناء الأمة الإسلامية خاصتها وعامتها، عربها وعجمها، جمع لم يجلس مثله بين يدى عالم من علماء الإسلام.. وكان في تسامحه هذا القدوة الصالحة للمؤرخ يتعلم منه كيف يكتب التاريخ، بلسان التاريخ لا بلسان الدين، والمثل الأعلى للعالم يتعلم منه كيف يستطيع أن يتجرد من عواطفه، وميول نفسه، وخواطر قلبه أمام الأمانة والعلم، والوفاء بحقه.. وكنت أرى عذوبة نفسه في عذوبة لفظه، وطهارة قلبه في طهارة لسانه،

---

(١) النظرات: ٢١٦/١ و٢١٧ بتصرف.

(٢) السابق، ٩٥/١ و٩٦ و١٠١ بتصرف.

وصفاء ذهنه في وضوح أغراضه ومراميه، وجمال ذوقه في جمال ملاحظاتـــه واستنتاجاته".[1]

(١) النظرات: ص٩٥ و٩٦ و١٠١ بتصرف.

المبحث السادس: اللغة العربية

من الموضوعات الإسلامية التى شاعت فى نظراته دفاعه عن لغة القرآن الكريم، وتصديه لتلك الحملة الشعواء التى شنت عليها من جهات متعددة: "من المستعمر الذى كان يمنى نفسه بأن نتحول عنها إلى العامية حتى تنقطع بيننا وبين تراثنا وقرآننا ودِيننا الأسباب، وننسى حضارتنا وتاريخنا وأمجادنا، فنتصاع لترهاته وسخافاته، ونقبل على ثقافاته".[١]

دافع المنفلوطى عن اللغة العربية، ورد القول على من أدعى قصورها عن مقتضيات الحضارة الحديثة، وبين أن عوامل نموها كثيرة وبخاصة الاشتقاق ويعجب من أن عرب الجاهلية بلغ بهم الترف اللغوى حدا وضعوا منه خمسمائة اسم للأسد، وأربعمائة للداهية وثلثمائة للسيف، ونحن نراها اليوم "تضيق عن حاجاتنا، فلا نعرف لأداة واحدة من آلاف الأدوات التى يضمها المعمل اسما عربيا واحدا؟ اللهم إلا القليل التافه من أمثال: المسبر والمبرد، والمنشار والمسمار؟[٢]

وهو حينما يقول هذا، لا يعنى الازدراء بها، والتحقير لها، وإنما يحاول جاهدا أن يبعث فيها الحياة حتى تساير نهضتنا، وقد كمنت فيها عوامل نموها ورقيها، فرأى أن الحاجة ماسة إلى العناية الشديدة بأمرها، لا فى مفرداتها فحسب، ولكن فى أساليبها وتصفيتها من المبتذل الساقط[٣] وقد أجمل رأيه بقوله: "إن كان الجاهليون فى حاجة إلى مجتمع لتوحيد اللغات المتشعبة، فنحن فى حاجة إلى مجتمعات كثيرة: مجتمع لجمع مفردات العربية المأثورة وشرح أوجه استعمالها الحقيقية والمجازية فى كتاب واحد يقع الاتفاق عليه والإجماع على العمل به، ومجتمع دائم لوضع أسماء للمسميات الحديثة بطريق التعريب أو النحت أو الاشتقاق، وآخر للإشراف على الأساليب العربية المستعملة، وتهذيبها

---

(١) نشأة النثر الحديث وتطوره، لعمر الدسوقى، ص٢٠٩.

(٢) النظرات: ٢/٢٤٧.

(٣) نشأة النثر الحديث وتطوره، ص٢١٠.

وتصفيتها من المبتذل الساقط والمستغلق النافر، والوقوف بها عند الحد الملائم للعقول والأذهان، وآخر للمفاضلة بين الكتاب والشعراء والخطباء ومجازاة المبرز منهم والمقعر، إن خيرا فخير وإن شرا فشر".(١)

قال المنفلوطي هذا قبل أن ينشأ مجمع اللغة العربية، وقبل أن ينشأ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب وتخصص الجوائز العديدة لتشجيع المبرزين في مختلف الميادين. وإن دل هذا الرأي على شئ فإنما يدل على شدة حرصه على نهضة اللغة ومسايرتها للمدنية الحديثة، وبقاء أسلوبها عربيا فصيحا لا تشوبه شوائب العجمة، والرقي بالأدب شعرا ونثرا.

---

(١) النظرات: ٢/٢٤٨.

المبحث السابع: دعوته لجهاد المحتلين وتفجعه واستصراخه لإغاثة المنكوبين من المسلمين

عندما قامت الحرب بين إيطاليا وطرابلس الغرب نراه يكتب مقالا بعنوان "خطبة الحرب" يدعو فيها المسلمين إلى جهاد الإيطاليين ويحضهم على الصبر واستهانة الموت، ويطعن على عدوهم المتحصن بأساطيله ومعاقله، وقد اختار بعض الأساليب التى تتوافق مع روح الخطابة الجهادية، فبرزت أساليب الإنشاء التى مكنته من تبليغ رسالته وتحريك مشاعر المسلمين للوقوف أمام عدو لا يرقب فيهم إلاّ ولا ذمة، فنراه يبدأ مقدمته بأسلوب النداء البعيد ليتوافق هذا مع الحالة الشعورية واصفا لهم بصفات تحرك فيهم الغيرة والشجاعة لملاقاة هذا العدو، يقول: "يا أبطال برقة، وليوث طرابلس، وحماة الثغور، وذادة المعاقل والحصون، صبرا قليلا فى مجال الموت، فها هى نجمة النصر تلمع فى آفاق السماء، فاستنيروا بنورها، واهتدوا بهديها حتى يفتح الله عليكم".(١)

ثم نراه يكثر من أساليب الأمر التى تلائم حاله النفير وروح الخطابة يقول: "أجلبوا عليهم بخيلكم ورجلكم وأصدقوا حملتكم عليهم، وجعجعوا بهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم، واطلبوهم بكل سبيل وفوق كل أرض وتحت كل سماء، وازعجوهم حتى عن طعامهم وشرابهم، ويقظتهم ومنامهم، فما أعذب الموت فى سبيل تنغيص الظالمين!". (٢)

ثم نراه يهون من شأن عدة العدو الحربية وأنها لا تحول بين الشهادة التى تقربهم من الحياة الباقية، ويعلل ذلك بقوله: "فإن الأعداء إن ملكوا عليكم طريق الحياة لا يملكون عليكم طريق الموت".(٣)

ويستخدم بعد ذلك لإثارة شعورهم، وترغيبهم وحثهم على تحقيق النصر بعض الوسائل التى تمكن له ما يريد، منها:

---

(١) النظرات: ١٨٢/٢.

(٢) نفس المرجع، ص١٨٣.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

١-شهادة التاريخ عليهم، والصفحة التى يسطرها كتاب التاريخ لهم وأنها لابد أن تكون مشرقة لتنضم إلى الصحائف البيضاء التى سجلها التاريخ لأسلافهم العظام.

٢-حماة الإسلام من السابقين الأولين والمجاهدين الصابرين يشرفون عليكم من علياء السماء لينظروا ماذا تصنعون بميراثهم الذى تركوه فى أيديكم، فأمضوا لسبيلكم، وقولوا لهم إنا بكم لاحقون، وأنا على آثاركم لمهتدون.

٣-أثر الهزيمة على مستقبل الإسلام، وقد بدا هذا واضحا فى خاتمة المقال، يقول: "إن هذا اليوم له ما بعده، فلا تسلموا أعناقكم إلى أعدائكم، فإنكم إن فعلتهم لن يعبد الله بعد اليوم على ظهر الأرض أبدا".(١)

وتقوم الحرب ويحتل الطليان طرابلس الغرب، وأهله جماعة ضعفاء أمام جحافل الطغيان، لا يملكون من الحول غير قلوب يملؤها اليقين بالله، والثقة به، وهنا يستغيث المنفلوطى ويستصرخ لإنقاذ هذا البلد المسكين ويكتب مقالا بعنوان "وارحمتاه" يقول فيه: "وارحمتاه لجماعة المسلمين فى طرابلس، إنهم عاجزون عن أن يعدوا لعدوهم الزاحف عليهم بقنابله وقذائفه غير أجسام ستصبح عما قليل أشلاء مبعثرة تحت كل كوكب، وقلوب لا تزال تنبض حتى تسمع طلقات المدافع والبنادق فتسكن، وأرواح ستطير فى آفاق السماء طيران ذلك الدخان فى أجواز الفضاء.

وارحمتاه لهم، إنهم يستغيثون فلا يجدون مغيثا، ويستصرخون فلا يسمعون مجيبا، وقد تقطعت بهم الأسباب، وأعوزت الوسائل، وسدت فى وجوههم السبل، فلا يبق لهم منها إلا سبيل الموت، وفى الموت راحة البائسين والمنكوبين من شقاء الحياة وبلائها".(٢)

---

(١) السابق، ص١٨٥.

(٢) السابق، ص ١٧٧ و١٧٨ بتصرف.

الفصل الثانى

الخصائص الفنية لأسلوب المنفلوطى فى كتابه النظرات

المبحث الأول: الذاتيـة

يتميز أسلوب المنفلوطى فى مقالاته التى يسيطر عليها حسه الإسلامى بالذاتية والاستقلال، فقد أنشأه بقوة طبعه، وسلامة فطرته، وحسن ذوقه، ورغم تأثره "فى القديم بابن المقفع وابن العميد، وفى الحديث بجبران ونعيمة؛ ولكن هذا التأثر دخل فى فنه دخول الإلهام والإيحاء، لا دخول التقليد والاحتذاء، فله من الأولين إشراق الديباجة وقوة النسج، وله من الآخرين جدَّة الموضوع وطرافة الفكرة. ولكنك لا تتذكر وأنت تقرأه أحدا من أولئك جميعا".(١)

وقد سمى الدكتور شوقى ضيف هذا الخاصية بشخصية الكاتب، وقال عن المنفلوطى: "أن كل ما يكتبه يُطْبَعُ بطابعه، وكأنه عملة خاصة به، وهى ليست عملة مزيفة، وإنما هى عمله صحيحة تنبع من فكره وقلبه وتعطيه سماته الخاصة به، فنقرؤه، ولا نلبث أن نقبل عليه، لأنك تجد عنده ما يحدث لذة فنية فى نفسك، إذ يقدم لك أثرا أدبيا حقيقيا يمس قلبك، ويثير عاطفتك".(٢)

وأشار المنفلوطى إلى هذه السمة فى مقدمة النظرات بقوله: "يسألنى كثير من الناس كما يسألون غيرى من الكتاب: كيف أكتب رسائلى، كأنما يريدون أن يعرفوا الطرق التى أسلكها إليها فيسلكوها معى، وخير لهم ألا يفعلوا، فإنى لا أحب لهم ولا لأحد من الشادين فى الأدب أن يكونوا مقيدين فى الكتابة بطريقتى أو طريقة أحد من الكتاب غيرى، وليعلموا ــ إن كانوا يعتقدون لى شيئا من الفضل فى هذا الأمر ــ أنى ما استطعت أن أكتب لهم تلك الرسائل بهذا الأسلوب الذى يزعمون أنهم يعرفون لى الفضل فيه، إلا لأنى استطعت أن أنفلت من قيود التمثل والاحتذاء، وما نفعنى فى ذلك شئ ما نفعنى ضعف ذاكرتى

---

(١) وحى الرسالة، لأحمد حسن الزيات، ١/٣٩٣.

(٢) الأدب المعاصر فى مصر، د./ شوقى ضيف، ص٢٣٠.

والتواؤها على وعجزها عن أن تمسك إلا قليلا من المقروءات التى كانت تمر بى".[١]

واستطاع المنفلوطى فى نظراته تطبيق هذه السمة من خلال حسه الإسلامى ورأيناه يصدر فيها عن نفس واعية، وثقافة عميقة، وفهم لمقاصد الإسلام، وأسلوب يبتعد عن التقليد يظهر من خلاله قسمات الشخصية المنفلوطية التى تطل برأسها من خلال ألفاظه وعباراته، ففى مقال له عن الرحمة يقول: "لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا مغبون ولا مضهوم.. ولأقفرت الجفون من المدامع .. ولاطمأنت الجنوب فى المضاجع. ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام".[٢]

وفى مقال له عن الهجرة، نراه يبرز جانبا جديدا من جوانب الإعجاز فى شخصيته ﷺ، وقد تمثل هذا فى الجانب الخلقى، يقول[٣]: "إن فى أخلاق النبى ﷺ، وسجاياه التى لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ما يغنيه عن كل خارقة تأتيه من الأرض أو السماء، أو الماء أو الهواء.

إن ما يبهر العرب من معجزات حلمه وعلمه وصبره واحتماله وتواضعه وإيثاره وصدقه وإخلاصه، أكثر مما كان يبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وانشقاق القمر، ومشى الشجر، ولين الحجر.. فلولا صفاته النفسية وغرائزه وكمالاته ما نهضت له هذه الخوارق بكل ما يريده، ولا تركت له المعجزات فى نفوس العرب ذلك الأثر الذى تركته، ذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٤]

فهذه قطعة من النثر الفنى البديع، أبرزت فى ثوب أدبى جميل، ظهرت فيها شخصيته الواعية التى حاولت إرجاع الإعجاز إلى الجانب الخلقى، فلولا هذا الجانب ما كان لمعجزاته الحسية أثر واضح فى نفوس العرب. ونرى أنه

---

(١) النظرات: ١/٥.

(٢) النظرات: ١/٨٦.

(٣) نفس المرجع، ص١٢٧.

(٤) سورة آل عمران: ١٥٩.

وفق في اعتماده على الجانب الأخلاقي لأنه لا قيمة لمعجزاته الحسية إذا كان صاحبها لا يتحلى بالأخلاق الكريمة والخلال الحميدة.

إنها لفتة تدل على فهم واع لطبيعة الشخصية والمعجزة، وتجعل لمقاله قيمته فنية عالية؛ وذلك لتجليتها الجانب الإنساني، وبروز شخصية الكاتب التي تستهوى القارئ وتستحوذ على نفسه، ومحاولته التركيز في آخر المقال على استقلال الشخصية الإسلامية، والدعوة إلى أخذ العبرة من حياته ﷺ لا من حيلة غيره. يقول المنفلوطي: "أن حياة النبي ﷺ مثال يجب أن يحتذيه المسلمون للوصول إلى التخلق بأشرف الأخلاق والتحلي بأكرم الخصال، وأحسن مدرسة يجب أن يتعلموا فيها كيف يكون الصدق في القول، والإخلاص في العمل، والثبات على الرأى وسيلة إلى النجاح وكيف يكون الجهاد في سبيل الحق سببا في علوه على الباطل.

لا حاجة لنا بتاريخ فلاسفة اليونان وحكماء الرومان وعلماء الأفرنج، فلدينا في تاريخنا حياة شريفة مملوءة بالجد والعمل، والبر والثبات والحب والرحمة، والحكمة والسياسة، والشرف الحقيقي، والإنسانية الكاملة، وهي حيلة نبينا ﷺ".(١)

والذى نخلص إليه هو أن الذاتية كانت سمة واضحة عند المنفلوطي في نثره الإسلامي الذى سطره من خلال مقالاته في كتابه النظرات، ولا حرج عليه إذا اتخذ من القديم مثلا يحتذيه؛ لأنه جمع بين الأصالة والمعاصرة، وقد كانت طريقته ــ برغم محافظتها واتخاذها النثر الجيد القديم مثلا أعلى ــ طريقة إبداعية في كثير من جوانبها، ففيها أصالة المنفلوطي وعليها طابعه، وكل ما كتب بها موضوعات حية، هي من تجارب الكاتب المرتبطة بنفسه وقومه وعصره. "فهي طريقة في النثر أشبه بطريقة شوقي في الشعر، فيها محافظة من حيث اتخاذ القديم الجيد مثلا أعلى في الصياغة، وفيها تجديد من حيث تطوير الأدب وإضافاته، واتخاذ الإطار البياني المحافظ وسيلة للتعبير عن مشاعره هو،

---

(١) النظرات: ١/١٢٩.

وتجاربه هو، وعصره هو، بحيث تتضح شخصيته كأجلى ما تكون، وتظهر المعاصرة في أسلوبه فلا تخطئها إلا عيون المكابرين".[١]

وبهذه الذاتية المعتدلة نقول إنه أسهم بنصيب وافر في حقل التجديد الأدبي المعتدل الذي يقوم على التعاون بين الماضي والحاضر، والدعوة الحقة حين تدعو إلى التجديد لا تفصله عن القديم ولا تعزله عن الماضي بل تجعل من الماضي سبيلا إلى الجديد، ومن التطور رابطة بين القديم والحديث، وهذا ما حققه المنفلوطي في نثره الفني الإسلامي ليسير بهذا مع منظومة الفكر الإسلامي الواعي الذي ينفتح دوما على ثقافات الأمم دون أن يتخلى عن مقوماته، ويبتعد عن التغريب الذي يرى أصحابه أن التجديد هو "الانفصال الكامل عن كل قديم. والاتجاه الشامل إلى كل جديد دون تحفظ أو اختبار.. ولعل هذه دعوة إلى "التجديد المطلق" بمقاييسة المسرفة البعيدة عن الأصالة والتكامل، ومن هجومه على القديم إنما يريد أن يدفع العرب والمسلمين إلى الانصهار في ثقافات الأمم والخروج عن مقوماتهم وشخصيتهم".[٢]

ولعل هذه الذاتية التي اتسم بها حسه الإسلامي ليست مقصورة على هذا الجانب من أدبه، بل هي سمة عامة في أدب المقالة الذاتية عنده، وهذا أمر طبعي؛ لأن المقالة الذاتية في أدبه "هي أعظم وأوسع ألوان كتاباته المقالية. فهي تستوعب أهم موضوعاته التي تمثل عصره ومجتمعه أصدق تمثيل، وهي في الوقت ذاته تمثل مزاج الرجل. واتجاهاته وأهم مقومات شخصيته، لأن الرجل الأسلوب كما يقولون".[٣]

---

(١) دراسات أدبية، للدكتور/ أحمد هيكل، ص١٢١.

(٢) مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام، للأستاذ/ أنور الجندي، ص٩٩ و١٠٣ بتصرف، ط مجمع البحوث الإسلامية السنة الرابعة، العدد الحادي والخمسون، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

(٣) مصطفى لطفي المنفلوطي، د./ محمد أبوالأنوار، ٢٦٨/١ بتصرف.

المبحث الثاني: المعجم اللغوي

كان المنفلوطي موثوقا بلغته[١]، فقد حافظ عليها وعلى قواعدها إلى حد كبير[٢]، وأن ما يؤخذ عليه لن يتجاوز عد الأصابع، وذلك أمر يقع فيه السابق واللاحق" ومعجمه اللغوي في مقالاته الإسلامية يضم حصيلة متنوعة من الألفاظ الجزلة التي تتميز بسلامة الجرس وجمال الإيقاع وقوة الإيحاء والتنوع في استخدام الدلالات المختلفة للألفاظ، وهي حصيلة لا بأس بها تطلعنا على ثقافة لغوية واسعة ومقدرة فائقة في استخدامها، كما يضم معجمه اللغوي الألفاظ المطبوعة التي تدل على تمكنه اللغوي وابتعاده عن التكلف، وقد أشار إلى هذا في مقدمة نظراته بقوله: "إنني ما كدت أتكلف لفظا غير اللفظ الذي يقتاده المعنى ويتطلبه، ولا أفتش عن معنى غير المعنى الطبيعي القائم في نفسي، بل كنت أحدث الناس بقلمي كما أحدثهم بلساني".[٣]

والمنفلوطي في تناوله لألفاظ اللغة العربية كان حريصا على استخدامها استخداما لغويا سليما، وصياغتها صياغة حسنة، من خلال الطاقة التعبيرية والصوتية للكلمة بما لها من دلالة وإيحاء وإشعاع فني دقيق، وهذه الخصائص التعبيرية والفنية للفظة يمكننا الوقوف عليها في كل ألفاظ نثره الإسلامي في نظراته، حيث انتقى ألفاظه انتقاء، وانتخبها بذوق الأديب ووجدان الكاتب وبراعة المنتخب المدقق لنرى ألفاظه الموحيه بدلالتها الجمالية.

فمثلا مقاله "عبرة الهجرة" يضم العديد من الألفاظ الموحية المعبرة عن أخلاقه ﷺ وشمائله أدق تعبير كلفظ "شجاع القلب" التي توحي بالقوة النفسية التي تمكنه من نشر دعوته وعدم تهيبه من قوى البشر مهما كان عظمها. ويضم المقال أيضا ألفاظاً تتعاون مع سابقتها على رسم لوحة جميلة لأخلاق النبي ﷺ مثل: حليما ــ سمح الأخلاق ــ واسع الأمل ــ كبير الهمة ــ صلب النفس.

---

(١) مصطفى لطفي المنفلوطي، د./ محمد أبوالأنوار، ٢/٢٦١.

(٢) مدرسة البيان في النثر الحديث، د./ حلمي محمد القاعود، ص٢٩١.

(٣) النظرات "المقدمة": ١/٤٠.

وفى مقاله "الرحمة" يعبر عما يريد بأسلوب الشاعرية النثرية فنراه يقول فى مقدمة مقاله: "سأكون فى هذه المرة شاعرا بلا قافية ولا بحر؛ لأنى أريد أن أخاطب القلب وجها لوجه، ولا سبيل إلى ذلك إلا سبيل الشعر".(١)

وهذه الشاعرية نراها واضحة فى ألفاظه المعبرة عن معانى الحزن التى حاول من خلالها تصوير رحمه الأرض والسماء بالإنسان، يقول: "إن السماء تبكى بدموع الغمام.. ويخفق قلبها بلمعان البرق.. وتصرخ بهدير الرعد، وإن الأرض تئن بحفيف الريح.. وتضج بأمواج البحر، وما بكاء السماء ولا أنين الأرض إلا رحمة بالإنسان.. ونحن أبناء الطبيعة فلنجارها فى بكائها وأنينها".(٢)

فنرى ألفاظه وقد كسيت بأثواب جميلة تتوافق مع الحالة النفسية التى بلغت من المنفلوطى غايتها، وكان موفقا فى صوره التشخيصية التى حاول من خلالها رسم صورة لبكاء السماء وأنين الأرض، والتى اعتمد فيها على عنصرى الحركة والصوت.

ثم ينبه على بعض الطوائف التى يجب أن تمتد إليها أيدى الرحماء، وينتقى من معجمه اللغوى ألفاظا تتواءم مع حال كل طائفة من هذه الطوائف، وهذا إن دل فإنما يدل على ثقافة لغوية واسعة كانت طوع بنانه يقول المنفلوطى: "أيها الإنسان ارحم الأرملة التى مات عنها زوجها، ولم يترك لها غير صبية صغار، ودموع غزار، ارحمها قبل أن ينال اليأس منها ويعبث الهم بقلبها فتؤثر الموت على الحياة".

ارحم المرأة الساقطة لا تزين لها خلالها، ولا تشتر منها عرضها على تعجز عن أن تجد مساوما يساومها فيه فتعود به سالما إلى كسر بيتها.

ارحم الزوجة أم ولدك وقعيدة بيتك ومرآة نفسك وخادمة فراشك لأنها ضعيفة، ولأن الله قد وكل أمرها إليك، وما كان لك أن تكذب ثقته بك.

ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فإنك إلا تفعل قتلته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين.

---

(١) نفس المرجع: ١/٨٤.

(٢) النظرات: ١/٨٦.

ارحم الجاهل لا تتحين فرصة عجزه عن الانتصاف لنفسه فتجمع عليه بين الجهل والظلم، ولا تتخذ عقله متجرا تربح فيه ليكون من الخاسرين.

ارحم الحيوان لأنه يحس كما تحس ويتألم كما تتألم ويبكى بغير دموع، ويتوجع ولا يكاد يبين".(١)

وتشيع فى معجمه اللغوى الألفاظ الموحية بالحكمة لتدل على نفاذ بصيرته، وعمق فهمه داعما بذلك رأيه ساعيا إلى المثالية الأخلاقية التى تمكن الأدب من أداء رسالة نافعة تساهم فى بناء مجتمع إنسانى تعلو فيه الفضائل.

وهذه بعض الحكم التى وردت فى مقالاته الإسلامية:

"إذا وجد الحكيم بين جوانح الإنسان ضالته من القلب الرحيم.. وجد المجتمع ضالته من السعادة والهناءة".(٢)

"لو وفيت لزوجك لوفت لك، ولو أدبت ولدك لعناه أمرك، ولو أحسنت اختيار صديقك ما خانك، ولو رحمت نفسك ما خسرت حياتك".(٣)

"ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش أو كسب المال، وإنما هى حالة من حالات النفس تسمو بها إلى أرقى درجات الإنسانية وتبلغ بها غاية الكمال".(٤)

"من أراد أن يطلب السعادة فليطلبها بين جوانب النفس الفاضلة، وإلا فهو أشقى العالمين، ولو أحرز زخائر الأرض وخزائن السماء".(٥)

"المنافق كاذب لأن لسانه ينطق بغير ما فى قلبه، والمتكبر كاذب لأنه يدعى لنفسه منزلة غير منزلته، والفاسق كاذب لأنه كذب فى دعوى الإيمان

---

(١) نفس المرجع: ٨٨ و٨٩.

(٢) النظرات: ٨٦/١ مقال "الرحمة".

(٣) نفس المرجع، ص٨، ط مقال "عبرة الدهر".

(٤) نفسه، ص ١١٨، مقال "الصدق والكذب".

(٥) نفسه، ص١٥٤، مقال "الصياد".

ونقض ما عاهد الله عليه، والنمام كاذب لأنه لم يتق الله فـــى فتنتـــه، فيتحـــرى الصدق فى نميمته، والمتملق كاذب لأن ظاهره ينفعك، وباطنه يلذعك".(١)

"لا يستطيع باطل أن يصرع الحق فى ميدان، لأن الحق وجود، والبـــاطل عدم، إنما يصرعه جهل العلماء بقوته، وبأسهم من غلبته، وإغفالهم النـــداء بـــه والدعاء إليه".(٢)

"من لا خير له فى دينه لا خير له فى وطنه؛ لأنه إن كان بنقضـــه عـــهد الوطنية غادرا فاجرا، فهو بنقضه عهد الله وميثاقه أعذر وأفجر".(٣)

وقد جاءت ألفاظ المنفلوطى المعبرة عن حسه الإسلامى سهلة رقيقة عذبـة واضحة قريبة إلى الفهم والذهن، "ولكن مع ذلك، فإننا نصادف قطعا صعبة فـــى القراءة والفهم على حد سواء، ولعل ذلك يرجع إلى احتذائه للأقدمين خاصة "أبى العلاء المعرى" ويتضح تعقيد أسلوبه فى مقالة "البعث" التى كتبها متأثرا برســـالة الغفران، ويستخدم فيها الكثير من الألفاظ الوعرة التى ندر استخدامها فى العصر الحديث"(٤)، ومن هذه القطع قوله: "يا بنى آدم، دعوا النوق فى مراحها، والشـــاء فى دروبها، والوحش فى كناسه، والضب فى جحره، والذئب فى وجاره، والقطا فى أفاحيصه، ولا تزعجوا العصافير فى أعشاشها، ولا الحمام عن محاضنـــها، ولا اليعاسيب عن خلاياها، ولا الأسماك عن مسارحها(٥)، وجنبوهـــا فخـــاخكم وشباككم، وقترکم وزباركم(٦)، ومداكم وشفاركم، فإن لـــها نفوســـا كنفوســـكم، ووجدانا كوجدانكم، ورجاء فى الحياة كرجائكم وأعلموا أن الله تعالى ما أغـــوى بعضكم ببعض، ولا سلط قويكم على ضعيفكم، ولا أجرى هذه الينابيع من الدماء

---

(١) نفسه، ص١٦٢، مقال "الكذب".

(٢) نفسه، ٢/٥١، مقال "الدعوة".

(٣) نفسه، ٣/٢١٨.

(٤) مدرسة البيان فى النثر الحديث، د./ حلمى محمد القاعود.

(٥) هذه فروق أماكن تلك الحيوانات.

(٦) القتر: جمع قتر بضم القاف، وهو الناموس الذى يبنيه الصائد ليستتر عن الصيد. والزبى: جمع زبية بضم الزاى، وهى حفرة تحتفر فى قمة الجبل لصيد الأسد.

بين أحياءكم إلا بعد أن ضريتم[١] بهذه اللحوم ضراء السباع بفرائسها، وقطعتم إلى المتعة ما شئتم من الحلاقيم والغلاصم والأوداج والأباهر[٢]، فارحموها ترحموا أنفسكم، واعصموا دماءها يعصم الله دماءكم، إنكم إلى الرحمة محتاجون وإلى ربكم راغبون".[٣]

وقد أشار الدكتور حلمى القاعود فى كتابه مدرسة البيان إلى الألفاظ الصعبة فى النظرات ودل على أماكن صفحاتها، لكنها لا تؤثر على الطبيعة العامة لأسلوبه السلس الصافى العذب.[٤]

ومن الملاحظ أن المنفلوطى لم يلجأ إلى استخدام العامية إطلاقا فى أسلوبه ولكنه اقتبسها فى موضعين لم يتجاوزهما فى أغلب الظن[٥]، فقد اقتبس كلمات من نشيد يقدمه الممثلون على المسرح يقول: ما دامت بلادنا زراعية، حبوا الفلاح إن كنتم تحبوا وطنكم كما يقتبس أغانى وعبارات أخرى عامية فى نفس الموضع بعد أن ندد بها وهى من كلام الممثلين فى المسرح الهذلى مثل أغنية "أبيع هدومى عشان بوسه من خدك القشطة يا ملبن يا حلوة زى البسبوسة يا مهلبية تمام وأحسن".[٦]

والذى نخلص إليه أن ألفاظ الرجل فى معجمه اللغوى اتسمت بالشاعرية وبدا هذا واضحا فى انتقائه الدقيق للألفاظ، حيث تكون اللفظة فى موقعها الصحيح المناسب، ليس فى دلالتها المعجمية فحسب، وإنما فى دلالتها السياقية، والإيحائية والصوتية، وقد جمع فى معجمة اللغوى بين سهولة الألفاظ وجزالتها حسبما يقتضى المقام، وهو من الذين يملكون ناصية اللغة الفصحى فينتقون من

---

(١) ضرى الوحش باللحم اعتاده وألفه.

(٢) الغلاصم: جمع غلصمة وهى اللحمة بين الرأس والعنق، والأباهر جمع أبهر وهو عرق يخرج من القلب إلى سائر الشرايين إذا انقطع مات صاحبه.

(٣) النظرات: ٢٤٢/٣.

(٤) مدرسة البيان فى النثر الحديث، د./ حلمى القاعود، ص ٢٨٩ و ٢٩٠.

(٥) نفس المرجع، ص٢٩٠.

(٦) النظرات: ٤٤/٣.

الحديث أطيبه، ومن التعبير أسماه، وقد صدق الدكتور عمر فروخ حين وصفه فقال: "والمنفلوطي مقتدر في فهم عبقرية اللغة، عارف بمفرداتها وتراكيبها، عارف ببلاغتها وبيانها، أديب، فهو من أجل ذلك كله يتخير كلماته تخيرا كبيرا".[1]

---

(١) أربعة أدباء معاصرين، للدكتور/ عمر فروخ، ص٢٢، ط بيروت، ١٩٤٤.

المبحث الثالث: الروافد الأصيلة
(الاقتباس والتضمين)

المقصود بالروافد الأصيلة أن يستعين الكاتب فى إبداعه باقتباس من البيان القرآنى أو الشعر، أو باستشهاد بهما، أو بتلميح إليها، أو باستلهام المعنى القرآنى، أو الفكرة الشعرية، مجرد استلهام، ودون إشارة صريحة أو مباشرة.(١)

وإنما جمعنا بين هذه الروافد فى نظرات المنفلوطى الإسلامية؛ لأن فى الاستعانة بها توظيفا لمؤثر لغوى أو أسلوبى أو دلالى، ولأنها تدل على عمق انتماء المنفلوطى إلى موروثه الدينى واللغوى والتاريخى.

وللموروث ــ من حيث هو ــ حضور حى فى وجدان المنفلوطى، وحين يتوسل به للوصول إلى وجدان الجماعة، يكون قد توسل إليه بأقوى الوسائل تأثيرا عليه؛ "لأن كل معطى من معطيات التراث يرتبط دائما بهالة من القيم الفكرية والروحية، بحيث يكفى استدعاء هذا المعطى أو ذاك لإثارة كل الإيماءات والدلالات التى ارتبطت به فى وجدان السامع أو القارئ تلقائياً".(٢)

الرافد القرآنى:

تشرب المنفلوطى حب القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره، وتشبع به عقيدة وفكرا وأسلوبا تشبعاً ملك عليه أقطار نفسه، وظهر هذا واضحا فى نثره الإسلامى، فرأيناه يزين أسلوبه بآيات من القرآن الكريم توضح معناه وتؤيده وتزيده جمالا على جمال وتحوطه بالمهابة والجلال.

وقد بدا تأثره بالقرآن فى الاقتباس تارة والاستشهاد به تارة أخرى، فمن اقتباساته نختار هذه العبارات من مقاله عن مدينة السعادة يقول(٣): "فإذا إنا بين

---

(١) النثر الكتابى فى العصر الأموى، د./ محمد فتوح أحمد، ص١٦٣، ط مكتبة الشباب الأولى، ١٩٨٤م.

(٢) استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر، د./ على عشرى زايد، ص١٨، ط طرابلس، ليبيا، سنة ١٩٧٨م.

(٣) النظرات: ٦٩/١ ومابعدها "مدينة السعادة".

يدى جبل عال كأنما هو جدار قائم يمسك السماء أن تقع على الأرض.. استيقظت أنا والشمس من مرقدينا .. لقد بلغ الرجل مرتبة الموحدين الصادقين، الذين يعبدون الله مخلصين له الدين.. حسب المجرم عندنا عقوبة أن يتفق أهل المدينة على احتقاره والزراية به .. وإن أحدنا لا يؤثر أن يتخطفه الطير أو يسقط عليه كسف من السماء على أن يرى نفسه بغيضا إلى قومه صغيرا في نفوسهم ذليلا فى أعينهم.. لا يرفعون إليه طرفا ولا يقيمون لهم وزنا".

وفي مقال له عن "الرحمة"[١] يقول: "لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا مغبون.. ولا طمأنت الجنوب فى المضاجع.. ارحم الحيوان لأنه يحس كما تحس ويتألم كما تتألم ويبكى بغير دموع، ويتوجع ولا يكاد يبين".

وفى مقال له بعنوان "دمعة على الإسلام" يقول[٢]: "إن الله أغير على نفسه من أن يسعد أقواما يزدرونه ويحتقرونه ويتخذونه وراءهم ظهريا".

وفى خطبة له عن الحرب وتحريض أهل ليبيا على مقاومة المعتدين والانتقام منهم يقول[٣]: "اجلبوا عليهم بخيلكم ورجلكم واصدقوا حملتكم عليهم، وجعجعوا بهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم، واطلبوهم بكل سبيل وفوق كل أرض وتحت كل سماء".

فنلاحظ من خلال هذه النماذج أن المنفلوطى كان يقتبس من الأسلوب القرآنى ما يغذى أسلوبه لفظا ومعنى، ومن ثم تغلغل نسيج المقتبس القرآنى فى نسيج الأسلوب المنفلوطى وأصبح لبنة من لبنات بنيته الحية وسمة من سماته الأسلوبية.

وقد يكون التأثر عن طريق الاستشهاد بالبيان القرآنى استشهادا صريح النسبة ليؤكد حجته ويقويها بأصدق قول وأعظم بيان، فمن ذلك حديثه فى رسالة الغفران يقول[٤] وهو يصف أنهار الجنة: "رأيت جميع تلك الأنهار مكبرة، ثم

---

(١) النظرات: ٨٦/١ و٨٩.
(٢) نفس المرجع، ٦٩/٢.
(٣) نفسه، ١٨٣/٢.
(٤) نفسه، ٩٤/١.

تمثلت في نظري مصغرة، فإذا هي سطور من النور، وأحرف بيضاء في صحيفة خضراء، قرأتها فرأيتها ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ (سورة محمد: ١٥) ثم يتحدث في نفس الرسالة عن رؤية أهل النار لأهل الجنة والحوار الذى دار والحسرة التى تعلو أهل النار، يقول: "فما رأنا أهل النار حتى ضجوا بصوت واحد ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ (سورة الأعراف: ٥٠) فرأينا ملوكا وأكاسرة يتضاغون[1] في السلاسل والأغلال ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (سورة فاطر: ٢٧)

ربنا ارجعنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل" فيهتف بهم هاتف "أولم نعمركم؟ ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير".

وفى مقاله "دمعة على الإسلام" يقول: "يا قادة الأمة ورؤساءها، عذرنا العامة فى إشراكها وفساد عقائدها، وقلنا إن العامى أقصر نظرا وأضعف بصيرة من أن يتصور الألوهية إلا إذا رآها ماثلة فى النصب والتماثيل والأضرحة والقبور، فما عذركم أنتم وأنتم تتلون كتاب الله، وتقرؤون صفاته ونعوته، وتفهمون معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (سورة النمل: ٦٥) وقوله مخاطبا نبيه: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً﴾ (سورة الأعراف: ١٨٨)، وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (سورة الأنفال: ١٧)[2]

وقد يبتعد المنفلوطى عن الاقتباس المباشر والاستشهاد القرآنى الصريح إلى مجرد الإلماح والإيماء وهذا يدل على عمق تأثره بالمعانى القرآنية وتأثير هذا فى بنيته التعبيرية، وأنه أصبح مصدر استلهام له فى نثره الفنى الإسلامى، ونرى هذا واضحا فى مقال له بعنوان "الأوصياء" وهذه بعض فقرات من هذا

---

(١) يقال بات الصبيان يتضاغون من الجوع، أى: يتضررون منه.

(٢) النظرات:٢/٦٩ و ٧٠.

المقال، يقول[١]: "فما أتم نجاءه حتى دخل عليه صديقه الوحيد الذي يأنس به ويستخلصه لنفسه.. وأما شأنه مع الولد فقد علم أنه سيبلغ عما قليل أشده.. ثم أعاد كرته على الغلام وسعى سعيه في المجلس الحسبى فأعاد سيرته الأولى، ووضع في عنقه غلا لا فكاك له من بعده إلى يوم يبعثون".

فقوله ويستخلصه لنفسه، يستلهم روح البيان القرآني في الآية الرابعة والخمسين من سورة يوسف، وقوله: إنه يبلغ عما قليل أشده يستلهمه من الآية الثانية والعشرين من نفس السورة، وقوله وسعى سعيه في المجلس الحسبى، مستلهم من الآية التاسعة عشر من سورة الإسراء، وقوله: "فأعاد سيرته الأولى مستلهم من الآية الحادية والعشرين من سورة طه، وقوله ووضع في عنقه غلا مستلهم من الآية الحادية والسبعين من سورة غافر، وقوله من بعده إلى يوم يبعثون مستلم من الآية مائة من سورة المؤمنين.

الرافد الشعري:

تزود المنفلوطي من الأدب العربي، وقرأ لكبار الأدباء في عصور الأدب الزاهرة، وقد برز هذا واضحا في مقدمة كتابه النظرات عندما رأيناه يذكر طائفة كبيرة من الشعراء[٢] في معرض حديثه عن آثارهم، وهذا يدل على إلمامه بالتراث الأدبي عند العرب، وقد تأثر إلى حد كبير بأشعار هؤلاء الفحول، فرصع بها مقالاته الإسلامية، واستعان بها في الرد على أعداء الإسلام، فقوى بها حجته ونوع أسلوبه، فنراه في خاتمة مقاله عن "الإسلام والمسيحية" بعدما رد مزاعم اللورد كرومر يقول[٣]: "أيها الفيلسوف التاريخي: لا تقل أننا متعصبون تعصبا دينيا فإنك قد أسأت إلينا وإلى ديننا، فلم نر بدا من الذب عنا وعنه بما تعلم إنه حق وصواب، على أنه لا عار علينا فيما تقول، وهل التعصب الديني إلا اتحاد المسلمين يدا واحدة على الذود عن أنفسهم والدفاع عن جامعتهم؛ وإعلاء شأن دينهم ونصرته حتى يكون الدين كله لله.

---

(١) نفس المرجع، ٢/١٣٠ و١٣١ و١٣٥.

(٢) النظرات: ١/١٦ ومابعدها.

(٣) نفس المرجع.

إن كان رفضاً حبُّ آلِ محمدٍ فليشهدِ الثقلانِ أنى رافضُ

وفى مقال له عن "الدعوة" يقسم دعاة الأمة إلى أربعة أقسام، ويستعين فى القسم الثالث منها بشعر امرئ القيس ملتمسا منه صورة توافق حال هذا الداعى، يقول[1]: "ورجلا لا يعرف حقا ولا باطلا، فهو يخبط فى دعوته خبط الناقة العشواء فى بيدائها، فيدعو إلى الخير والشر والحق والباطل، والضار والنافع، فى موقف واحد. فكأنه جواد امرئ القيس الذى يقول فيه:

مكَرٌّ مفَرٌّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً

وفى مقال له عن "رسالة الغفران" يتأثر بأبى العلاء المعرى ويلخص رسالته بمفهوم المنفلوطى، ويأتى الرافد الشعرى فيساعده على رسم صوره وإبرازها فى ثوب قشيب، وهذه بعض فقرات من مقاله عن رسالة الغفران، يتخيل فيها حاله فى الجنة، يقول[2]: "فما أخذ هذا الخاطر مكانه من نفسى حتى رأيت بين يدى فرسا من الجوهر المتخير مسرجا ملجما فعلمت أنى قد سعدت، وأنها الأمنية التى كنت أتمناها، فعلوت ظهره وغمزته غمزة خرج بها خروج الودق من الحساب، والسيف من القراب، وعلى ما جهدته لم يشك إلى ما شكاه جواد عنترة العبسى إليه فى قوله:

فازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القَنَا بِلَبَانِهِ وشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ

أو ما شكاه جواد عمر بن أبى ربيعه فى قوله:

تشكى الكميتُ الجَرْىَ لما جَهَدْتُهُ وبين لو يستطيع أن يتكلما

ثم رميت بطرفى فإذا فارس يحضر[3] فرسه فى الهواء إحضارا.. فقلت من أنت يرحمك الله؟ فقال عدى بن زيد العبادى، فدهشت وقلت عدى بن زيد فى الجنة بعد الزيغ والضلال؟ فقال أنا عيسوى، وأنت محمدى، وليس لصاحبك على أحد حجة إلا بعد ظهوره وبلوغ دعوته، فقلت: لا نكران؛ ولكن كيف لم يقعد بك فسقك وشرابك، وأين استهتارك فى قولك:

---

(١) نفسه، ٥٢/٢.

(٢) نفسه، ٩٤/١ ومابعدها.

(٣) أحضر الفرس: ارتفع فى عدوه.

بكر العاذلون في وضح الصبح يقولون لي أما تستفيقُ
ودعوا بالصبوحِ فَجْرًا فجاءتْ قينةٌ في يمينها إبريقُ

ويواصل حديثه ويقول رأيت شاباً ريق الشباب، فسألت عنه فقيل لي: زهير بن أبي سلمى، فما كدت أصدق أنه القائل:

سَئِمْتُ تكاليفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يعش ثَمانينَ حَوْلاً لا أَبَا لَكَ يَسأَمِ

فقلت له: بم غفر الله لك؟ فقال: كنت في جاهليتي أترقب مبعث محمد وأتمنى البقاء حتى أراه، فحال بيني وبينه الموت، فأوصيت به ابني كعبا وبجيرا وكنت أؤمن بالحساب فما نفعني شئ ما نفعني قولي:

فلاَ تكْتُمُنَّ اللهَ ما في نُفُوسِكُمْ لِيَخْفَىَ ومَهْمَا يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فيُوضَعْ في كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ لِيَومِ الحِسَابِ أو يُقَدَّم فيُنْقَمِ

وإلى جانب زهير، عبيد بن الأبرص، فسألته عن مصير أمره؟ فقال: كتبت لي النار فما زال الناس يهتفون بقولي:

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوه وسَائِلُ اللهِ لا يخيبُ

والعذاب يخفف عني شيئاً فشيئاً حتى خرجت ببركة هذا البيت من الجحيم إلى النعيم.

المبحث الرابع: القدرة على الوصف

يتميز أسلوب المنفلوطي بالقدرة على الوصف، والاستقصاء لجوانب الموصوف، فهو يتمتع بحس عميق، وإدراك واع، ودقة ملاحظة في نقل انطباعاته وأحاسيسه عن الناس والأشياء، ففي مقاله عن "عبرة الهجرة"[1] يصف لنا صفات النبي ﷺ النفسية، وإنها تمثل جانبا هاما من جوانب الإعجاز يفوق معجزاته الحسية، يقول: "إن ما كان يبهر العرب من معجزات علمه وحلمه وصبره واحتماله وتواضعه وإيثاره، وصدقه وإخلاصه، أكثر مما كان يبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وانشقاق القمر، ومشى الشجر، ولين الحجر، .. فلولا صفاته النفسية وغرائزه وكمالاته ما نهضت له الخوارق بكل ما يريده، ولا تركت له المعجزات في نفوس العرب ذلك الأثر الذي تركته، ذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

وفي نفس المقال يتميز بالقدرة على وصف شخصية النبي ﷺ وصفا دقيقا، يقول: "كان ﷺ شجاع القلب، فلم يهب أن يدعو إلى التوحيد قوما مشركين يعلم أنهم غلاظ جفاف شرسون متنمرون، يغضبون لدينهم غضبهم لأعراضهم، ويحبون آلهتهم حبهم لابناءهم.. كان حليما سمح الأخلاق فلم يزعجه أن قومه يؤذونه ويزدرونه ويشعثون[2] منه، ويضعون التراب على رأسه، ويلقون على ظهره أمعاء الشاة وسلى[3] الجزور.. كان واسع الأمل كبير الهمة صلب النفس، لبث في قومه ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله فلا يلبى دعوته إلا رجل بعد الرجل، فلم يبلغ الملل من نفسه، ولم يخلص اليأس إلى قلبه".

ويصف لحظة خروجه ﷺ مع صاحبه أبي بكر، والخطة التي اتبعها، والصعوبات التي تغلبا عليه من خلال عرض فني رائع يقول: "فخرج من بينهم ليلة الهجرة متنكرا بعدما ترك في فراشه ابن عمه علي بن أبي طالب ﷺ، عبثا

---

(١) النظرات: ١/١٢٧ ومابعدها.

(٢) يقال شعث فلان من فلان: تنقصه.

(٣) السلى للدواب بمنزلة المشيمة للإنسان.

بهم وتضليلا لهم عن اللحاق به، ومشى هو وصاحبه أبوبكر ﷺ يتسلقان الصخور، ويتسربان في الأغوار والكهوف، ويلوذان بأكناف الشعاب والهضاب، حتى انقطع عنهما الطلب، وتم لهما ما أرادا بفضل الصبر والثبات على الحق".

والمنفلوطي يغوص في أعماق شخصياته ليستخرج منها أنفس الصفات وأزكاها، ويبدو هذا واضحا في مقاله الذى كتبه عن المؤتمر الإسلامي، ووصف فيه أبطال المسلمين في حالتي الحرب والسلم، يقول: "ذكرت أبا بكر وهو يقاتل أهل الردة ويقول: والله لو منعوني عقال بعير لقاتلهم عليه، وذكرت عمر وهو واقف في مرابض المدينة في حمارة القيظ يستقبل شبحا أسود يرفعه الآل ويخفضه، ويطويه الأديم وينشره.. وذكرت صلاح الدين، وهو يقود الجحفل اللجب والجيش العرمرم، إلى حيث يستنقذ الثغور، ويستخلص الأمصار ويخوض جمرة الحرب المتأججة.. وذكرت محمد الفاتح وهو يلعب بكرة الأرض لعب الصبي بكرته، ويخترق بسفائن البحر رمال القفر، حتى نزل بالقسطنطينية نزول القضاء من السماء، وذكرت صقر قريش وقد طار من الشرق إلى الغرب فأنشأ وحده دولة خضعت لها أفريقيا وبعض أوربا، وذكرت مع أبطال الحرب أبطال السلم فذكرت عمر بن عبدالعزيز وعدله، والمأمون وفضله، والغزالي وحكمته، وابن رشد وفلسفته، ومعاوية وسياسته، وعبدالملك وكياسته".

وينتقل في هذا المقال إلى وصف الضعف الذى أصاب دولة الإسلام ويعتمد على الازدواج ويجنح إلى المبالغة ويحاول من خلالهما تصوير الحالة التى وصل إليها الإسلام، يقول: "ثم ذكرت الإسلام إذ ضربه الدهر بضرباته، ورماه بنكباته، فأصبح أثراً من الآثار، وخبرا من الأخبار، وعليلا حار فيه أطباؤه، ومله عواده، وظل مترجحا بين داهيتين، ومضطربا بين غايتين إما أن يموت موتة أبدية ـــ وبالله العياذ ـــ أو يحيا حياة مادية، لا حياة أدبية، وينهض جامعة تجارية، لا جامعية دينية".[1]

---

(١) النظرات: ١٤٤/٣ و١٤٥ بتصرف.

وإذا ما انتقلنا إلى وصفه لأحوال النفس وجدنا نجاحا كبيرا؛ "لأن الرجل يتمتع بقدر من الحساسية، والتأمل النفسي، وهذا يسمح له بتقديم نماذج مرضية، إذا أراد وصف الشعور، أو الإحساس، خاصة إذا كان منفعلا بالحالة التي يؤديها"[1]، ونرى ذلك في مقاله عن "البخيل" أثناء حديثه عن الأسباب التي غرست ملكة البخل في نفس البخيل، ويهمنا أن نقف عند السبب الثالث الذي يتحدث عن أثر الإيمان بالقضاء والقدر في خلقي السخاء والبخل، يقول متحدثا عن السبب الثالث من أسباب البخل: "سوء الظن بالله: ذلك أن المتدين إذا أخذت عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذها رسخ في قلبه الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى عينا ساهرة على عباده الضعفاء، فهو أرحم من أن يغفل شأنهم، ويكلهم إلى أنفسهم ويسلمهم لصروف الليالي وعاديات الأيام، فلا يلج به الحرص على الجمع، ولا يزعجه الخوف من البذل، وعلى العكس منه ضعيف الإيمان، ضعيف الثقة بواهب الأرزاق ومقسم الحظوظ والحدود، فهو لسوء ظنه لا يزال الخوف من الفقر نصب عينيه حتى يصير البخل ملكة راسخة فيه".[2]

وفي مقاله "دمعة على الإسلام" يصف الأثر النفسي للإسلام على أبناء الرعيل الأول وكيف سما بأخلاقهم، ثم يتحدث عن الانتكاسة النفسية لمسلمي اليوم لانحرافهم عن طريق العقيدة السليمة يقول: "وقد ترك الإسلام بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولى، فكانوا ذوي أنفة وعزة، وإباء وغيرة، يضربون على يد الظالم إذا ظلم، ويقولون للسلطان إذا جاوز حده: قف مكانك، ولا تغل في تقدير مقدرا نفسك، فإنما أنت عبد مخلوق لا رب معبود، واعلم أنه لا إله إلا الله.

هذه هي صورة النفوس في عصر التوحيد، أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ما دخلها من الشرك الباطن تارة والظاهر تارة أخرى، فقد ذلت رقابهم، وخفقت رؤوسهم، وضرعت نفوسهم، وفترت حميتهم، فرضوا بخطة الخسف، واستناموا

---

(١) مصطفى لطفي المنفلوطي، د./ محمد أبوالأنوار، ٢/٢٤٤ و٢٤٥ بتصرف.

(٢) النظرات: ١/٢٢١.

إلى المنزلة الدنيا، فوجد أعداؤهم السبيل إليهم، فغلبوهم على أمرهم، وملكوا عليهم نفوسهم وأموالهم ومواطنهم وديارهم فأصبحوا من الخاسرين".[١]

وهناك وصف المعاني المجردة، وهو شائع في كثير من مقالاته الإسلامية، ولعل من أجملها حديثه عن الخلق في مقال "الضمير" يقول: "الخلق هو الدمعة التي تترقرق في عين الرحيم كلما وقع نظره على منظر من مناظر البؤس، أو مشهد من مشاهد الشقاء. هو القلق الذي يساور قلب الكريم ويحول بين جفنيه والاغتماض كلما ذكر أنه رد سائلا محتاجا، أو أساء إلى ضعيف مسكين. هو الحمرة التي تلبس وجه الحي خجلا من الطارق المنتاب الذي لا يستطيع رده، ولا يستطيع مد يد المعونة إليه. هو اللجلجة التي تعتري لسان الشريف حينما تحدثه نفسه بأكذوبة ربما دفعته إليها ضرورة من ضرورات الحياة. هو الشر الذي ينبعث من عيني الغيور حينما تمتد يد من الأيدي إلى العبث بعرضه أو كرامته. هو الصرخة التي يصرخها الأبي في وجه من يحاول مساومته على خيانه وطنه، أو ممالاة عدوة.[٢]

ويظهر هذا الجانب واضحا أيضا في المقالات الآتية: الرحمة، الحرية، الكذب، الشرف، الجزع، الحسد، الوفاء.

والمنفلوطي الوصاف يلجأ بفعل قدرته على التدفق العفوي إلى الإلحاح على الفكرة، "وإبرازها في أكثر من صورة، وتقليبها على أكثر من وجه مستخدما في ذلك الوسائل الفنية المساعدة على تمدد النص واتساع الكلام، كالترادف والتوكيد والتوازن والتكرار، ولعل هذا يرجع إلى ولعه واهتمامه بإضفاء معالم جمالية تجلو أسلوبه، وتبرز أفكاره في أحلى هيئة، وأصفى صورة".[٣]

وقد بدا هذا واضحا في حديثه عن الجاهلية المعاصرة التي هدمت أخلاق الإسلام ومقاصده في كثير من مواطنها، مفصلا لبعض هذه المواطن، مستخدما

---

(١) نفس المرجع: ٦٨/٢.

(٢) نفسه، ١٦١/٣.

(٣) مدرسة البيان في النثر الحديث، د./ حلمي محمد القاعود، ص٢٨٢ و٢٨٣.

فى ذلك أساليب الاستفهام التى ساعدته على رسم صوره التى عرض من خلالها لبعض مظاهر الجاهلية يقول فى مقاله عن "المؤتمر الإسلامى": "تبئتنى عن الإسلام أين مقره ومكانه؟ وأين مسلكه ومضطربه؟ وفى أى موطن من المواطن حل، ومعهد من المعاهد نزل؟ أفى الحانات والمواخير التى يغص بها الفضاء، وتئن منها الأرض والسماء، والتى ينتهك فيها المسلمون حرمات دينهم بلا خجل ولا حياء؟ كأنما يشربون الماء الزلال، ويغشون البضع الحلال،.. كل ذلك على مرأى ومسمع من الحكومة الإسلامية، والمعاهد الدينية والقضاءين الشرعى والنظامى؟ أم فى حوانيت الباعة حيث الغش الفاضح، والغبن الفاحش، مزخرفا بالأقوال الكاذبة، والأيمان الباطلة؟ أم فى مجالس الأحكام حيث للدينار الأحمر السلطان الأكبر على سلطان العدو وسلطان الذمة وسلطان الشرائع، اللهم إلا ما كان من تلك الألواح المكتوب فيها (العدل أساس الملك) أو (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل).. أم فى معاهد الدين حيث يتلقى المتعلمون الدين جسما بلا روح، وعلما بلا عمل، كأنما يتلهون بدراسة إحدى الشرائع الدائرة، أو أحد الأديان الغابرة، وحيث يتلقون كشكولا عجيبا وخلقا غريبا من الأكاذيب، والترهات، فلا تكاد تسمع من أفواههم إلا حديثا موضوعا، أو قولا مصنوعا. أو خرافة تاريخية، أو بدعة دينية، وحيث يقضون حياتهم فى المناظرات والمجادلات، والتحاسد والتباغض والتقاطع والتدابر، وهى بعينها الأخلاق والرذائل التى ما جاءت الأديان إلا لمحاربتها، والقضاء عليها، فهم يهدمون من حيث يظنون أنهم يبنون، ويسيئون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا؟ أم فى مجالس المتصوفة حيث الألعاب الجمبازية، والحركات البهلوانية، والسرقات باسم العادات، وانتهاك الحرمات بعنوان البركات؟"[1]

---

(١) النظرات: ٣/١٤٦، ومابعدها بتصرف.

المبحث الخامس: البنية النثرية

١-تشكيل البنية:

بناء المقالة هو هيكلها، وطريقة ترتيب أجزائها ــ العنوان والمقدمة والوسط والخاتمة ــ بما يحقق التناغم الذى يسير بالقارئ إلى الوجهة التى يتوخاها الكاتب.

ومقالات المنفلوطى الإسلامية بلغت مبلغا عظيما فى إحكام بنائها، وحسن تقسيمها.

فإذا نظرنا إلى عنوانات مقالاته الإسلامية نلاحظ أنه كان يضع الموضوع فى اعتباره عند اختيار العنوان، وعلى هذا فعنواناته كلها تربطك بالموضوع رباطا مباشرا وصريحا، وتهيئ النفس للإقبال على الموضوع، وتمتاز عنواناته ــ بصفة عامة ــ "بالصقل وحسن الاختيار، والإيجاز حيث تقتصر غالبا على كلمة واحدة فإن تجاوزتها فإلى اثنين، وفى الأقل منهما تزيد على ذلك"[1]، وهذه بعض عناوين من مقالاته الإسلامية: الرحمة، التوبة، الدعوة، عبرة الهجرة، الإسلام والمسيحية، لا هجمية فى الإسلام، المؤتمر الإسلامى، مدينة السعادة، يوم الحساب، المدنية الغربية.

وإذا نظرنا إلى مقدماته وافتتاحياته، نرى فيها تنوعا فنيا يتوافق مع موضوعات مقالاته، ولعل أهمها ما يلى:

-اتصال المقدمة بالموضوع والتحامها به التحاما مباشرا، وقد بدا هذا واضحا فى المقالات الآتية: رسالة الغفران، ومدينة السعادة، والإسلام والمسيحية، ودمعة على الإسلام.

-شاعرية المقدمة وعزوبة التخيل، وقد ظهر هذا واضحا فى مقالى الرحمة ويوم الحساب.

-الكشف عما يريده الكاتب فى مقاله من خلال مقدمته، وبدا هذا واضحا فى مقاله "عبرة الهجرة".

---

(١) مصطفى لطفى المنفلوطى، د./ محمد أبوالأنوار، ٣٤٣/١.

-التخلى عن خياله وشاعريته لخطورة الأمر وفداحته، كما فى مقاله عن "المدنية الغربية".

-اللجوء إلى تفنيد بعض المعتقدات الخاطئة لمعالجة بعض الجرائم التى ترتكب باسم الإسلام كما فى مقاله "لا همجية فى الإسلام".

-كان يقدم بين يدى المقال بسؤال أو رسالة وردت إليه من قارئ كما فى مقالى البخيل والصندوق.

-تصوير صعوبة الموضوع الذى تعالجه وأهميته مثل مقال "الدعوة".

وأما الوسط أو العرض فيحظى عند المنفلوطى بنوع من الإلحاح وتقليب الأفكار والعناصر على أكثر من وجه وأكثر من صورة، إذ أن العاطفة لدى المنفلوطى تؤثر إلى حد ما فى تدفق الأفكار وانسياب الجمل والعبارات التى تثرى، دون أن يحجزها حاجز، أو يمنعها مانع، بل إنها تتواصل حتى تصل فى بعض الأحيان إلى الوقوع فى التكرار الذى يشكل أحيانا بعض الأعباء على النص، بيد أن المنفلوطى فى معظم الأحيان يحافظ على بث الحيوية فى أفكاره وشد القارئ إلى الموضوع بوساطة تدفقه العاطفى. (١)

وهو فى بعض الأحيان يبنى كلامه على الحجج العقلية، أو التسلسل المنطقى، وقد كان فارسا لا يبارى فى هذا الميدان، وقد ترسم خطا القدماء المناطقة بأن يسأل سؤالات تضطر المسؤول إلى الإجابة بنعم، ولا يزال السؤال يسلم إلى أخيه، حتى يذعن الخصم إلى حجته، وربما أطال فى مثل ذلك التسلسل، مما يدل على قدرة فى المجادلة ودربة عليها، ولعل مقاله عن "الإسلام والمسيحية" ومقاله عن "المؤتمر الإسلامى" من خير الأدلة ما نقول.

وهو حينا يستجمع حججه فيلقى بها مسرودة الواحدة تلو الأخرى، حتى لا يترك للقارئ مغمزا، ولعل ما كتبه فى مقاله "دمعة على الإسلام" خير دليل على ما نقول.

---

(١) مدرسة البيان فى النثر الحديث، د./ حلمى محمد القاعود، ص٢٠٠ و ٢٠١.

وقد يعمد المنفلوطي إلى الأسلوب القصصي فيبني مقالاته عليه، وربما تستفرغ مقالته في ذلك الأسلوب[١]، وربما مزج بينه وبين سواه[٢]، وهو في كلا الحالين مجيد، وهذا الأسلوب شائع في مقالاته الإسلامية.

وربما بنى مقالته بناء خطبة وكل همه فيها إثارة الحماسة عند القارئ مستخدما في ذلك بعض الوسائل الفنية التي تساعده على تحقيق هدفه، ولعل من أبرز هذه الوسائل أساليب الأمر والنهي والاستفهام والنداء والنفي والتوكيد.[٣]

وأما الختام فإنه دائما ينهي مقاله بالفكرة التي يريد تقريرها، وهو غالبا ما يجنح إلى التركيز والإثارة، ومن ثم ينهي المقال ببيت من الشعر يتمثل به، أو بحكمة أو مثل، أو ما في قوتهما من عبارة قوية الدلالة واضحة التأثير فيما هو بصدده.

٣-النقض النثري:

نلحظ في بنية المنفلوطي النثرية ما يسمى بالنقض النثري، وفيه نرى التجاءه إلى ما يشبه النقض الشعري، فنراه يطرح بعض الدعاوى التي يرددها أعداء الإسلام للنيل منه، ثم يقوم بالإجابة عليها ونقضها، هادما لمعانيها وأفكارها وحججها كاشفا مفترياتها وحقدها الدفين على الإسلام، وهذا يدل على وعي جيد ومرهف بطبيعة الإسلام وتاريخه.

ولعل أبرز مثال على هذا مقاله عن "الإسلام والمسيحية"، وفيه يرد على اللورد "كرومر" الذي هاجم الإسلام هجوما عنيفا، واتهمه بالتعصب في كتابه "وصف مصر". إن المنفلوطي يدافع عن الإسلام دفاعا مجيدا ورائعا مدعما بوقائع التاريخ، ثم يذكر "كرومر" بالفظائع التي ارتكبها المسيحيون ضد الإنسانية والعلم، ويتحدث عن التعصب المسيحي على مدى التاريخ ضد المخالفين للمسيحية ويوجه كلامه إلى اللورد "كرومر" قائلا: "أيها الفيلسوف التاريخي: إن

---

(١) انظر المقالات الآتية: مدينة السعادة، رسالة الغفران، يوم الحساب.

(٢) انظر مقالي: العيد، الفضيلة.

(٣) انظر مقالي: دمعة على الإسلام، خطبة الحرب.

كان لابد من الاستدلال بالأثر على المؤثر، فالمدنية الغربية اليوم أثر من آثـــار الإسلام بالأمس، والانحطاط الإسلامي اليوم ضربة مـــن ضربـــات المســـيحية الأولى".[1]

ويتتبع المنفلوطي اللورد "كرومر" وينقض حججه واحدة تلـــو الأخـــرى، معتمدا في ذلك على التحليل والتعليل، والمناقشة البارعـــة، والثقافـــة الواعيـــة، والفكر المنظم، ونجد في ثناياه همسات من السخرية التي تمضي بالقارئ نحـــو الإقناع وتلزم الخصم الحجة، ولعلي تعرضت لتفصيل القول عن هذا المقال فـــي موضع آخر من هذا البحث.

---

(١) النظرات: ١/١٨٤.

المبحث السادس: الصورة

الصورة عماد الكتابة الأدبية إذ لا يكون أدب بغيرها على اختلاف تناول الفنون لها كماً وكيفا، وفى المقالة قد يتخلف عنصر الصورة لصالح عناصرٌ أخرى، إلا أن الخيال والتصوير هو الذى يحدد درجة أدبية المقال، فيمنحها حق العبور إلى عالم الأدب، أو يمنعها من ذلك.(١)

والصورة فى نظرات المنفلوطى الإسلامية استمدت عناصرها من الحكايات التراثية أو المظاهر الكونية أو النفس الإنسانية أو الواقع الاجتماعى، وانتزعت من فكرة الواعى انتزاعا، لأنها خلاصة عقله وحضوره الذهنى، ولذلك تبدو فيها ألوان البديع المختلفة وتتزاحم التشبيهات والاستعارات، لأنه كان شديد الحرص على الصياغة الفنية فى أسلوبه بجانب أنه أديب فكرة وهدف قبل أن يكون أديب إحساس وشعور.

ونثره الإسلامى فى النظرات حافل بالاستعارات الجميلة كقوله فى مقال "الرحمة": "إن السماء تبكى بدموع الغمام.. ويخفق قلبها بلمعان البرق.. وتصرخ بهدير الرعد، وإن الأرض تئن بحفيف الريح.. وتضج بأمواج البحر، وما بكاء السماء ولا أنين الأرض إلا رحمة بالإنسان.. ونحن أبناء الطبيعة فلنجارها فى بكائها وأنينها".(٢)

ففى هذه الفقرة نرى فيها روعة التصوير، وسبيله فى ذلك تجسيم المعنى وتشخيصه عن طريق الاستعارات التى ألف منها صوره الفنية الجميلة، فالسماء لها دموع تساعدها على البكاء، وتلك الدموع لها مواصفات خاصة فهى دموع الغمام الذى يعكر الجو ويظلمه ويغم القلوب مرآه لكثرته وشدة ظلمته، ومما زاد صورته جمالا استعانته باللفظة القرآنية التى ساعدته على رسم صورته. ويجعل للسماء قلبا يخفق بلمعان البرق، وهذه الصورة ترسم بحركتها المضطربة ولونها

---

(١) أدب المقالة، د./ عبدالعزيز شرف، ٨٤-٨٩، ط١، ١٩٩٧، نشر مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر.

(٢) النظرات: ٨٦/١.

الخاطف للأبصار تلك الحالة الحزينة التى وصلت إليها السماء، ثم يجعل السماء تصرخ من صواعقها الرعدية التى تجعلها فى حالة كئيبة. هذه صورة السماء. أما الأرض فهى فى أنين دائم ناتج عن ألمها من حركة ريح الصرصر العاتية، وتضيق ذرعا بأمواج البحر، وسبب هذه البكائية الرحمة بالإنسان الذى كرمه الله، فإذا كان الجماد يبكى رحمة بالإنسان، فمن باب أولى تكون رحمة الإنسان بأخيه الإنسان، والصورة قد استمدت هنا من المظاهرات الكونية.

ومن استعاراته البديعة ما جاء فى مقدمه مقال عن "يوم الحساب" يقول: "ساهرت الكوكب ليلة أمس حتى ملنى وملته وضاق كل منا بصاحبه ذرعا، وقد وقف الهم بينى وبين الكرى أجذبه فيدفعه، وأدنيه فيبعده، حتى أسلس قياده، وسكن جماحه".(١)

فقوة التصوير فى هذه الفقرة تبرز المعاناة النفسية التى سيطرت على المنفلوطى، وجعلته يأنس بالكوكب ويساهره، لكن الأمر طال حتى وصل إلى الملل والضيق، وهنا يلاحقه الهم ويقف له بالمرصاد ويحرمه من الراحة فلا يستطيع النوم، ويستعين بالتضاد ليصور هذه المعركة التى كانت بينه وبين الهم، ولا يجد لسكون جماحه طريقا إلا بالترويض.

ومن الأمور التى اشتركت فى تشكيل الصورة التشبية، وهذه بعض نماذج من مقالات مختلفة:

-"الحرية شمس يجب أن تشرق فى كل نفس، فمن عاش محروما منها عاش فى ظلمة حالكة، يتصل أولها بظلمة الرحم، وآخرها بظلمة القبر".(٢)

-"ما العالم إلا بحر زاخر، وما الناس إلا أسماكه المائجة فيه. وما ريب المنون إلا صياد يحمل شبكته كل يوم ويلقيها فى ذلك البحر فتمسك ما تمسك وتترك ما تترك، وما ينجو من شبكته اليوم لا ينجو منها غدا، فكيف اغتبط بما لا

---

(١) النظرات: ١/١٣٧.

(٢) نفس المرجع، ١٢٦.

أملك، أو اعتمد على غير معتمد، إذن أنا أضل الناس عقلا وأضعفهم إيماناً".[١]

-ويتحدث عن السريرة فيقول: "وقف آدم أمام باب السريرة يوم الشجرة يعالج فتحه واستعصى عليه، ثم وقف بنوه من بعده موقفه فعجزوا عجزه، فلج بهم الشوق إليها لجاجا طار بعقولهم وذهب بألبابهم، فتراموا على أقدام المنجمين والعرّافين لثما وتقبيلاً، وابتدروا النصب والتماثيل ركوعا وسجودا، وهاموا بزاجرات الطير والضوارب بالحصى هيام الإبل العطاش بمنازل الماء، يطلبون ما وراء السريرة والسريرة كنز مرصود لا تنجح فيه النفثات، ولا تجدى معه العزائم والرقى".[٢]

فهذه تشبيهات بلغت درجة عالية من الجمال، والسر فى ذلك يرجع إلى روعة المعنى وروعة الأداء فى سياقه مع حسن التخيل، وبروز الشخصية، "وذلك حيث تتجلى ميزة التعبير الأدبى فى الظلال التى يخلعها وراء المعانى وحولها، والإيقاع الذى يتسق وينسجم مع هذه الظلال، ويأتلف فى الوقت ذاته مع لون التجربة التى يعبر عنها، ومع جوها العام".[٣]

وهناك ما يسمى بالصورة الحقيقية وهى "لا تعتمد على شكل من أشكال المجاز، وتحقق مع ذلك شرط الاستحضار الحسى البارز لثراء تفاصيلها ودقة تركيبها"[٤]: ونظرات المنفلوطى الإسلامية تزخر بمثل هذا اللون من التصوير، وهذا مشهد من مشاهد الرحمة عنده يتحدث فيه عن رحمة الإنسان بالطير يقول: "ارحم الطير لا تحبسها فى أقفاصها ودعها تهيم فى فضائها حيث تشاء، وتقع حيث يطيب لها التغريد والتنقير، إن الله وهبها فضاء لا نهاية له فلا تغتصبها حقها فتضعها فى محبس لا يسع مدجناحها، اطلق سبيلها واطلق سمعك وبصرك وراءها لتسمع تغريدها فوق الأشجار، وفى الغابات، وعلى شواطئ الأنهار،

---

(١) النظرات، ص١٥٣.

(٢) نفسه: ١٣/٢.

(٣) مصطفى لطفى المنفلوطى، د./ محمد أبوالأنوار، ٢٣٧/٢.

(٤) علم الأسلوب، د./ صلاح فضل، ص٢٧٠، ط مؤسسة مختار، القاهرة، ١٩٩٢.

وترى منظرها وهى طائرة فى جو السماء، فيخيل إليك أنها أجمل من منظر الفلك الدائر والكوكب السيار".[١]

فهذه الصورة اعتمد فيها على حقيقة هامة، وهى رحمة الإنسان بالطائر حتى يكون حرا طليقا هائما مغردا سائحا فى جو السماء، ما يمسكه إلا الله.

وهذان نموذجان آخران لتخيله الحسن الذى لا يعتمد على ضروب المجاز بل التعبير الحقيقى ــ الناجح ــ وحده، فى رسم أبعاد الصورة.

١-يقول فى صدر مقاله أين الفضيلة: "قرأت فى بعض الروايات أن فتى قضى حقبة من دهره مولعا بحب فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة فى حياته، وإنما تخيل فى ذهنه صورة ألفها من شتى المحاسن ومتفرقاتها فى صورة البشر، فلما استقرت فى مخيلته تجسمت فى عينيه فرآها فأحبها حبا ملك عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه وذهب به كل مذهب: فأنشا يفتش عنها بين سمع الأرض وبصرها أعواما طوالا حتى وجدها.

لا أستطيع أن أكذب هذه القصة لأنى أنا ذلك الفتى بعينيه، لا فرق بينى وبينه إلا أنه كان يسمى ضالته الفتاة وأسميها الفضيلة، وأنه فتش عنها فوجدها، وفتشت عنها حتى عييت بأمرها فما وجدت إليها سبيلا".[٢]

٢-وأحيانا يقدم لنا بعض الصور "الكاريكاتيرية" ــ وهى على جمالها قليلة فى أدبه ــ وهذه صورة قدمها على نحو من السرعة ــ دون إفراط فى التنميق ــ ولكنها تستوقف حس الأديب، وذلك حيث عرض علينا صورة لرجل من أدعياء الدين فى الآخرة.[٣]

يقول: ".. حتى رأينا شقيا ذا لحية طويلة كثة، قد أحاط به ملكان وشدا عنقه بسبحة طويلة، ذات حبات كبيرة وقد أخذ كل منهما بطرف منها، وهو يهمهم بكلمات مبهمة فيقرعه أحدهما على رأسه ويقول له: "امكر وأنت فى

---

(١) النظرات: ٨٩/١.

(٢) نفس المرجع، ٦٠.

(٣) مصطفى لطفى المنفلوطى، د./ محمد أبوالأنوار، ٢٣٥/٢.

الحديد" فدنوت منه، وأنعمت النظر فى وجهه فعرفته، فتراجعت زعرا وخوفا، وصحت أيكون هذا من أشقياء الآخرة، وقد كان بالأمس من أقطاب الأولى".[١]

وهذان النموذجان يشهدان بأن صوره المعتمدة على التعبيرات الحقيقية تميل إلى هذا الضرب من الخيال الذكى، والتصور العذب، وهى بالغة الدلالة على ذكاء كاتبها وبروز شخصيته، وتوقد حسه.

ويمكن الآن أن ننتهى إلى أن هذا القسم الحسن: "الصورة فيه ناجحة فكراً وإحساسا وتخيلا، وصياغته محكمة فى سياقها، وفيها من جمال اللفتة وموسيقية التعبير، ما يحمل على الابتسام والرضا".[٢]

بقى ما يسمى بالصورة البديعية وقد اتسمت عنده بالعفوية والبساطة، فلم "يغرق فى المحسنات البديعية التى تقصد لذاتها، ويتكلف الكتاب فى سبيلها ما يتكلفون، وقد يجنون على المعنى فى سبيل اقتناصها".[٣]

ولعل السجع من أبرز صور البديع فى نثر المنفلوطى الإسلامى، وسجعه رقيق غير متكلف إلا فى النادر، يأتى عفويا بصورة عامة، ومنسجما مع طبعه وقريحته، إنه "السجع المطبوع، الذى يأتى بين الحين والحين للإسهام فى موسيقى الصياغة".[٤]

والسجع يبرز عند المنفلوطى فى الموضوعات التى يكون انفعاله فيها شديدا، واهتمامه بها عظيما كموضوع المؤتمر الإسلامى، فقد جاء فيه قوله[٥]: "تبئنى عن الإسلام أين مقره ومكانه؟ وأين مسلكه ومضطربه؟ وفى أى موطن من المواطن حل، ومعهد من المعاهد نزل؟ أفى الحانات والمواخير التى يغص بها الفضاء، وتئن منها الأرض والسماء، والتى ينتهك فيها المسلمون حرمات

---

(١) النظرات: ١/١٤٠ و١٤١.

(٢) مصطفى لطفى المنفلوطى، د./ محمد أبوالأنوار، ص٢٣٥.

(٣) نشأة النثر الحديث وتطوره، لعمر الدسوقى، ص٢٦١.

(٤) تطور الأدب الحديث فى مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية، د./ أحمد هيكل، ص١٧٥، ط دار المعارف ١٩٦٨.

(٥) النظرات: ٣/١٤٦ و ١٤٧.

دينهم بلا خجل ولا حياء؟ كأنما يشربون الماء الزلال، ويغشون البضع الحلال، .. أم في حوانيت الباعة حيث الغش الفاضح، والغبن الفاحش، مزخرفا بالأقوال الكاذبة، والأيمان الباطلة؟

وفي حديثه عن "الدفين الصغير" يقول: "فله الحمد راضيا وغاضبا، وله الثناء منعما وسالبا، وله مني ما يشاء من الرضا بقضائه والصبر على بلائه".(١)

وفي خاتمة مقاله عن الرحمة يقول: "أيها السعداء احسنوا إلى البائسين والفقراء، وامسحوا دموع الأشقياء، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء".(٢)

فالسجع في النماذج السابقة داخل في تكوين الصورة لأن المعنى يتطلبه في هذه المواقف العاطفية التي تحتاج إلى لغة حارة تعبر عنها، فتراه في نموذجه الأول ثائرا لحال الإسلام ووضع المسلمين، ودفعه هذا لتوجيه بعض الأسئلة التي تحمل بين طياتها الإنكار والتوبيخ، وفي الثاني نرى عاطفة الأبوة الحانية وإيمانه بقضاء الله عند فقده لولده، وفي الثالث عاطفة الشفقة والرحمة والإحسان.

ومن صوره البديعية الازدواج ومعناه تعادل الفقرات، بحيث تقابل كل كلمة في الجملة ما يعادلها وزنا في الجملة السابقة أو اللاحقة، أو ـ على الأقل ـ بحيث تقابل فاصلة الجملة ما يعادلها وزنا أو صيغة من فواصل الجمل الواقعة في النسق الكلامي.(٣)

ومن أمثلة ذلك قوله في معرض الكلام عن رؤيته للأمة العربية في تاريخها الإسلامي الزاهر بعد حياتها الجاهلية: "ثم أراها بعد ذلك وقد أنعم الله عليها بنعمة المدنية الإسلامية فأرى رغد عيشها، ولين طعامها واعشوشاب جوانبها، وعذوبة مواردها ومصادرها، وسرورها وغبطتها بما أفاء الله عليها من زخائر الفرس وأعلاق الروم، وامتلاء قصورها باللؤلؤ المنظوم من القيان،

---

(١) نفس المرجع، ٥٢/١.

(٢) نفس المرجع، ص٨٩.

(٣) تطور الأساليب النثرية، لأنيس المقدسي، ص١٣٨-١٣٩، ط بيروت ١٩٣٦.

واللؤلؤ المنثور من الولدان، وأرى مجالس غنائها، ومجامع أنسها، ومسارح لهوها، ومجالات سبقها، وملاعب جيادها، .. والطيور المحلقة في الأجواء، والسفن الذاهبة في الدأماء، والرياض الخضراء والغابات الشجراء، والقصور وتماثيلها، والبحيرات وأسماكها، والأنهار وشواطئها، والأزهار ونفحاتها، والغيوث وقطراتها".[١]

ومن أمثلة الازدواج حثه المسلمين على نصرة إخوانهم في طرابلس الغرب ومساعدتهم في حربهم مع إيطاليا، يقول: "إنكم لن تجدوا بعد اليوم موقفا هو أقرب إلى الله ، وأدنى إلى رحمته وإحسانه، وأجلب لمغفرته ورضوانه، من موقفكم أمام هؤلاء الضعفاء المساكين، تطعمون جائعهم، وتكسون عاريهم، وتسلمون أعزلهم، تعالجون جريحهم، وتخلفون قتيلهم في أهله وولده".[٢]

ويمكن القول بأن السجع والازدواج لدى المنفلوطي ليسا تقليدا لسابقيه، فهو أساسا كان ينقم عليهم اللجوء إلى الصنعة في الأسلوب، بل إن أدبه قضى نهائيا على بقايا مدرسة الصنعة. "ولكن سجع المنفلوطي وازدواجه يمثلان مزاجه بل مزاج اللغة العربية في الميل إلى الموسيقى اللفظية، التي تجمل الأسلوب وترعى المعنى"[٣]، يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات: "فالازدواج على إطلاقه، والسجع على تقييده، يؤلفان الموسيقية في الأسلوب البليغ منذ كان للعرب ذوق وللعربية أدب، فليست الحال فيها هي الحال في سائر الأنواع البديعية التي نشأت في الحضارة، ونمت بالترف، وسمجت بالفضول وفسدت بالتكلف، فالذين ينكرون على من يحسنون التأليف بين الأصوات، والمزاوجة بين الكلمات، والمجانسة بين الفواصل، إنما ينكرون جمال البلاغة، وجميل البلغاء وهو العروبة كله".[٤]

---

(١) النظرات المقدمة: ٨ و٩.

(٢) نفس المرجع، ٢/١٨٠ و١٨١، مقال "وارحمتاه".

(٣) مصطفى لطفي المنفلوطي، د./ محمد أبوالأنوار، ٢/٢٥٢.

(٤) دفاع عن البلاغة، ص١٦٦، ط سنة ١٩٤٥.

ومن صوره البديعية استخدامه للطباق والمقابلة بكثرة فى عباراته وجمله، ويرى الأستاذ عمر الدسوقى أنه كلف بالمقابلة على وجه الخصوص[١]، كقوله: "إن اليد التى تصون الدموع، أفضل من اليد التى تريق الدماء، والتى تشرح الصدور. اشرف من التى تبقر البطون، فالمحسن أفضل من القائد وأشرف من المجاهد، وكم بين من يحيى الميت. ومن يميت الحى".[٢] وقوله: "الجهل غشاء سميك يغشى العقل، والعلم نار متأججة تلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويدا رويدا. فلا يزال العقل يتألم لحرارتها ما دام الغشاء بينه وبينها، حتى إذا انكشف له الغطاء فرأى النار نورا، والألم لذة وسرورا.

لا يستطيع الباطل أن يصرع الحق فى ميدان، لأن الحق وجود، والباطل عدم، إنما يصرعه جهل العلماء بقوته، ويأسهم من غلبته، وأغفالهم النداء به والدعاء إليه".[٣]

ومن صوره البديعية موازنه الجمل "أى تعادل الفقرات على نحو من السجع، ويختلف عن السجع. لعدم التقيد بالقوافى، ويرى البيانيون أن حسنه قائم كحسن السجع"[٤] ولعل هذه الصورة من أحسن صوره البديعية وأكثرها فى نثره الإسلامى. ومن أمثلة ذلك ما ذكره فى مقدمة حديثه عن "المؤتمر الإسلامى" واصفا المصلح الإسلامى الشهير إسماعيل بك غصبرفسكى الروسى، يقول: "سرنى منظر ذلك الرجل العظيم، والداعى الكريم، وهو قادم إلى مصر يجتاز التخوم، ويتخطى البلدان، ويطوى الغبراء طى الكواكب الخضراء يقوده الأمل، ويسوقه الرجاء، وبين جنبيه همة عالية، ونفس كبيرة وقلب مشيع، وفؤاد فى الأفئدة، كالنسر فى الطيور، يحلق فى جو السماء تحليق من يحاول أن يظله بجناحيه".[٥]

---

(١) نشأة النثر الحديث وتطوره، لعمر الدسوقى، ص٢٥٩.

(٢) النظرات: ٨٦/١.

(٣) نفس المرجع، ٥١/٢.

(٤) تطور الأساليب النثرية، لأنيس المقدسى، ص١٤٣.

(٥) النظرات: ١٤٣/٣.

ولعل الصفة البديعية التى تشمل كل الصور البديعية لديه هى صفة أو ظاهرة "التفويف" وهى: "أن يؤتى فى الكلام بمعان متلائمة، فى جمل مستوية المقادير أو متقاربتها"[١] فإذا لاحظنا أن التفويف يتسع للسجع والازدواج والمقابلة والموازنة أمكن اطلاقه اسما عاما على الصور البديعية والصفات الأسلوبية لدى المنفلوطى. [٢]

---

(١) البلاغة الغنية لعلى الجندى، ص٣، ط١٩٥٦.

(٢) مصطفى لطفى المنفلوطى، د./ محمد أبو الأنوار، ٢/٢٥٤ بتصرف.

المبحث السابع: شيوع الروح الخطابية

تبرز بعض خصائص الخطبة فى مقالات المنفلوطى الإسلامية فى كتابه النظرات، فتراه "يبدئ ويعيد فى معانيه على طريقة الخطباء، بل هو يستعير منهم النداء بمثل أيها الإنسان. وترى عنده مثلهم التكرار فى الكلمات..، كما ترى عندة كثرة الفواصل بين العبارات، إذ كثيرا ما يقطع المعانى ويستأنفها. وقد يكون ذلك بسبب كثرة انفعالاته العاطفية".(١)

وقد برز هذا واضحا فى مقاله عن "الرحمة" فهو يبدئ ويعيد فى معانى الرحمة ويكثر من فواصله؛ لأنه صاحب قلب رحيم يحس أحزان الناس ويشاركهم مشاعرهم، وينفطر قلبه لما هم فيه من بؤس وشقاء وحرمان، يقول: "إن السماء تبكى بدموع الغمام.. ويخفق قلبها بلمعان البرق.. وتصرخ بهدير الرعد، وإن الأرض تئن بحفيف الريح.. وتضج بأمواج البحر، وما بكاء السماء ولا أنين الأرض إلا رحمة بالإنسان.. ونحن أبناء الطبيعة فلنجارها فى بكائها وأنينها.

إن اليد التى تصون الدموع، أفضل من اليد التى تريق الدماء، والتى تشرح الصدور. أشرف من التى تبقر البطون.

إن الرحمة كلمة صغيرة.. ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس فى منظرها. والشمس فى حقيقتها.

وإذا وجد الحكيم بين جوانح الإنسان ضالته من القلب الرحيم.. وجد المجتمع ضالته من السعادة والهناءة.

لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا مغبون ولا مهضوم.. ولأقفرت الجفون من المدامع.. ولا طمأنت الجنوب فى المضاجع. ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام".(٢)

---

(١) الأدب العربى المعاصر فى مصر، د./ شوقى ضيف، ص ٢٣٢ بتصرف.

(٢) النظرات: ٨٦/١ بتصرف.

وفى نفس المقال نرى لفظة أيها التى يستعملها الخطباء، يقول: "أيها الرجل السعيد: كن رحيما.. فيا أيها الإنسان احذر الحذر كله أن تكون واحدا من هؤلاء فإنهم سباع مفترسة.. أيها الإنسان. ارحم الأرملة.. أيها السعداء احسنوا إلى البائسين والفقراء".

وفى نفس المقال نراه يكرر الفعل أرحم التى تحرك بجوها وجرسها قلوب الناس، يقول: "ارحم الأرملة التى مات عنها زوجها.. ارحم المرأة الساقطة لا تزين لها خلالها ولا تشتر منها عرضها.. ارحم الزوجة أم ولدك وقعيدة بيتك ومرآة نفسك.. ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه.. ارحم الجاهل لا تتحين فرصه عجزه عن الانتصاف لنفسه.. ارحم الحيوان لأنه يحس كما تحس.. ارحم الطير لا تحبسها فى أقفاصها".

فتكرار كلمة الرحمة ومشتقاتها مرتبط ارتباطا وثيقاً بمضمون المقالة كلها، وما تسعى إليه من التأكيد على شيوع التراحم بين الناس؛ وكأن المنفلوطى بهذا التكرار يريد أن يجعل القارئ دائما، على ذُكْر من هذه الكلمة "الرحمة" فهى تظهر لك بمجرد نظرك فى سطور المقالة، ثم تظل عالقة بلسانك أثناء القراءة، ثم لا يكاد يبارح أذنيك دويها عقب الفراغ منها، وكأن ذلك رد فعل طبيعى لقلب يحس آلام المجتمع وأشجانه فيحاول التأكيد على معانى الرحمة، وهو الشئ الذى حاول المنفلوطى جاهداً التركيز عليه.

وفى مقاله عن "الإسلام والمسيحية" نراه يكرر عبارة "أيها الفيلسوف التاريخى" أثناء رده على اللورد كرومر، ولعل هذه العبارة توحى بالسخرية من ثقافة الرجل المغلوطة التى دفعته إلى الافتراء على الإسلام، ونراه فى نفس المقال يكرر عبارة "أم فى العصر" وقد ساعده هذا التكرار على تفنيد ما ذهب إليه من أن الديانة المسيحية كانت مبعث الحضارة والتقدم يقول: "فى أى عصر من عصور التاريخ، كانت الديانة المسيحية مبعث العلم ومطلع شمس المدنية والعمران؟ أفى العصر الذى كانت تدور فيه رحى الحرب الدموية بين الأرثوذكس والكاثوليكية تارة، وبين الكاثوليك والبروتستانت تارة أخرى بصورة وحشية فظيعة.. أم فى العصر الذى كانت إرادة المسيحى فيه صورة من إرادة

الكاهل الجاهل، .. أم فى عصر الذى كان يعتقد فيه المسيحى أن دخول الجمل فى سم الخياط أقرب من دخول الغنى فى ملكوت السماوات والأرض؟ أم فى العصر الذى كان يحرم فيه الكاهن الأعظم على المسيحى أن ينظر فى كتاب غير الكتاب المقدس. وأن يتلقى علما فى مدرسة غير مدرسة الكنيسة؟ .. أم فى العصر الذى ألفت فيه محكمة التفتيش لمحاكمة المتهمين بمزاولة العلوم فحكمت فى وقت قصير على ثلاثمائة وأربعين ألفا بالقتل حرقاً أو صلبا؟ أم فى العصر الذى أحرق فيه الشعب المسيحى فتاة حسناء بعدما كشط لحمها وحرق عظمها لأنها كانت تشتغل بعلوم الرياضة والحكمة؟[١]

وفى نفس المقال يواصل تكراره لأساليب الاستفهام التى تفحم خصمه ولا يجد سبيلا للرد عليها، يقول: "أيمكن أن يعيش الإنسان حرا على ظهر المسكونه لا يستبعده ملك ولا يسرقه كاهن؟ أيمكن أن يبيت المرء ليلة واحدة فى حياته هادئا فى مضجعه مطمئنا فى مرقده، لا يروعه دولاب العذاب ولا سيف الجلاد؟ أيمكن أن تملك النفس حريتها فى النظر إلى نظام العالم وطبائعه ودراسة العلوم الكونية ومزاولتها؟[٢]

وإذا كان التكرار من أبرز سمات الأسلوب الخطابى، فهو بلا شك من أبرز سمات الأسلوب فى مقالاته المتأثرة بحسه الإسلامى، وما نلحظه عنده من تكرار بعض الألفاظ، أو بعض العبارات ليس من الضرب المعيب الذى يؤتى به للتكثر، بل التكرار الدال الذى تستدعيه ضرورات التعبير، وتجليه حاجات البيان والفن.

ومن خصائص الأسلوب الخطابى الوضوح الذى يهتم "بسهولة العبارة، ووضوح المعنى؛ لأن فهم المعانى أساس الإقناع والاستمالة"[٣] وقد برزت هذه السمة فى نثر المنفلوطى فقد كان قائما على البيان والتصريح، بعيدا عن كل

---

(١) النظرات: ١/١٨٢.

(٢) نفس المرجع، ص١٨٦.

(٣) فن الخطابة، د./ أحمد الحوفى، ص١٦٨، ط نهضة مصر.

أشكال الإبهام والغموض، والمراوغة في التعبير يعيب على المعنى "الذى يقوم دونه ستار من التراكيب المتعاظلة والأساليب الملتوية".[١]

وقد استخدم المنفلوطى بعض الوسائل الفنية لتوضيح أسلوبه منها:

١-اعتماده على المنطق، والإقناع العقلى، فى أغلب القضايا التى يناقشها، سواء فى محاولته إثباتها أو إبطالها، ولعل هذا قد بدا واضحا فى مقاله عن "الإسلام والمسيحية"، ومقاله "لا همجية فى الإسلام"، ومقاله "عبرة الهجرة" الذى جاء فيه قوله: "كانت الهجرة مبدأ تاريخ الإسلام لأنها أكبر مظهر من مظاهره، وكانت عيدا يحتفل به المسلمون فى كل عام لأنها أجمل ذكرى للثبات على الحق والجهاد فى سبيل الله".[٢]

٢-اختيار الكلمات التى تناسب الموضوع بحيث تدل على معانيها فى يسر وسهولة ودقة، وقد بدا هذا واضحا فى مقاله عن "الكذب"، يقول: "ليس الكذب شيئا يستهان به، فهو أس الشرور ورذيلة الرذائل فكأنه أصل و الرذائل فروع له، بل هو الرذائل نفسها. وإنما يأتى فى أشكال مختلفة ويتمثل فى صور متنوعة. المنافق كاذب لأن لسانه ينطق بغير ما فى قلبه، والمتكبر كاذب لأنه يدعى لنفسه منزلة غير منزلته. والفاسق كاذب لأنه كذب فى دعوى الإيمان ونقض ما عاهد الله عليه، والنمام كاذب لأنه لم يتق الله فى فتنته، فيتحرى الصدق فى نميمته، والمتملق كاذب لأن ظاهره ينفعك وباطنه يذعك".[٣]

٣-حسن عرض الجمل وتأليفها وهو المعبر عنه بالبيان عند المنفلوطى، يقول: "وليس البيان ذهاب كلمة ومجيئ أخرى، ولا دخول حرف وخروج آخر، وإنما هو النظم والنسق والانسجام والاطراد والرونق واستقامة الغرض وتطبيق المفصل، والأخذ بمجامع الأبواب.. فإذا صح ذلك لامرئ فهو الكاتب القدير أو الشاعر المجيد"[٤]. قد طبق هذا فى نثره الإسلامى، ومن

---

(١) النظرات المقدمة، ص ١٣ بتصرف.

(٢) نفس المرجع، ١٢٨/١ و١٢٩.

(٣) نفسه، ١٦٢/١.

(٤) نفسه، المقدمة، ص٣١ و٣٢.

أمثلة ذلك ما كتبه عن "احترام المرأة" الذى حاول فيه الانطلاق من وجهة إسلامية يبين فيها عاطفة الأمومة ودورها الفعال فى الحياة الإنسانية، يقول: "نعم إن الرجال قوامون على النساء كما يقول الله تعالى فى كتابه العزيز، ولكن المرأة عماد الرجل، وملاك أمره، وسر حياته، من صرخة الوضع إلى أنة النزع.

لا يستطيع الأب أن يحمل بين جانحتيه لطفله الصغير عواطف الأم، فهى التى تحوطه بعنايتها ورعايتها، وتبسط عليه جناح رحمتها ورأفتها، وتسكب قلبها فى قلبه حتى يستحيلا إلى قلب واحد، يخفق خفوقا واحدا ويشعر بشعور واحد، وهى التى تسهر عليه ليلها، وتكلؤه نهارها، وتحتمل جميع آلام الحياة وأرزائها فى سبيله، غير شاكيه ولا متبرمة، بل تزداد شغفا به، وإيثارا له، وضنا بحياته بمقدار ما تبذل من الجهود فى سبيل تربيته، ولو شئت أن أقول لقلت إن سر الحياة الإنسانية، وينبوع وجودها وكوكبها الأعلى الذى تنبعث منه جميع أشعتها ينحصر فى كلمة واحدة هى "قلب الأم".(١)

ومن خصائص الأسلوب الخطابى إثارة الشعور، وقد بدا هذا واضحا من خلال حسه الإسلامى فى مقالاته واتخذ لذلك أكثر من وسيلة فنية، ولعل من أهمها:

١-قوة العاطفة، وذلك فى مواضع إثارة الحماسة واستنهاض همم المسلمين، وقد وضح هذا فى مقاله "خطبة الحرب" وحثه لأهل طرابلس على التصدى لهؤلاء المعتدين، يقول: "لا تحدثوا أنفسكم بالفرار، فوالله إن فررتم لا تفدون إلا عن عرض لا يجد له حاميا، وشرف لا يجد له ذائدا، ودين يشكو إلى الله قوما أضاعوه، وأنصارا خذلوه.

إنكم لا تحاربون رجالا أشداء بل أشباحا تتراءى فى ظلال الأساطيل، وخيالات تلوذ بأكناف الأسوار والجدران، فاحملوا عليها حملة صادقة تطير بما بقى من ألبابها، فلا يجدون لبنادقهم كفا ولا لأسيافهم ساعدا..

---

(١) نفسه، ١٠٢/٣.

إنكم تعتمدون على الله، وتثقون بعدله ورحمته، فتقدموا إلى الموت غير شاكين ولا مرتابين، فما كان الله ليخذلكم، ويكلكم إلى أنفسكم، وأنتم من القوم الصادقين".[١]

وله مقال آخر في هذا الموضوع بعنوان "وارحمتاه"[٢] كتبه أثناء الحرب بين إيطاليا وطرابلس الغرب، وفيه يأسى أشد الأسى عندما بدأ الطليان يغزون ليبيا، ويحاولون النزول بطرابلس، ونراه يرثي لهؤلاء المسلمين الضعفاء الذين اقتحمت ديارهم الجيوش الجرارة، ويبث الحمية في نفوس المسالمين حتى يغيثوهم وينجدوهم، وينعى على المستعمرين الطغاة ظلمهم وقهرهم.

والمنفلوطي في المقالين السابقين كان مدفوعا بعاطفته الإسلامية القوية، وضع فيهما ذوب قلبه حمية وغيرة على الدين وأهله ورثاء ورحمة لهؤلاء الذين يتصدون للاستعمار الغاشم، ويتطلعون إلى إخوانهم في مشارق الأرض ومغاربها، يناشدونهم القوة والنصر، ويشيد ببطولتهم وحميتهم العربية الإسلامية في الذود عن ديارهم مع قلة عددهم وفقرهم.

٢-الخيال في العبارة، "وذلك باختيار المفردات والعبارات التي تثير في النفوس أخيلة وذكريات، وتبعث صورا وأفكارا ملائمة للموضوع"[٣]، وقد برز هذا واضحا في نثر المنفلوطي، وقد ساعده طبعه الأصيل وملكته الطيعة وخياله الخصب على الافتنان في تأليف الصور الأدبية الرائعة المجسمة لمعاني تجربته وأفكارها تجسيما مصورا حيا، معبرا عن أبعاد التجربة تعبيرا أدبيا مؤثرا، وقد ظهر هذا في كل النماذج التي سقناها أثناء حديثنا عن الصورة.

٣-المزاوجة بين أساليب الإخبار والإنشاء، وقد بدا هذا واضحا عند المنفلوطي، ولهذه المزاوجة أثر كبير في إثارة الشعور لأنها تنأى بالأسلوب عن الطريقة الواحدة التي تحدث الملل، ولأنها تجدد نشاط السامعين بهذه المغايرة، ولأن

---

(١) النظرات: ١٨٢/٢ و١٨٣ بتصرف.

(٢) نفسه، ١٧٧/٢.

(٣) فن الخطابة، د./ أحمد الحوفي، ص١٧١.

تنوع الانفعالات والمعانى فى حاجة إلى أساليب متغايرة تفصح عنها. وقد بدا هذا واضحا فى النماذج التى ذكرناها فى ثنايا البحث.

٤-اختيار الكلمات القوية النفاذة إلى القلوب بقصد الحث والإثارة، كقوله وهو يخاطب أهل طرابلس: "اجبلوا عليهم بخيلكم ورجلكم، وأصدقوا حملتكم عليهم، وجعجعوا بهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم، واطلبوهم بكل سبيل، وفوق كل أرض وتحت كل سماء، وازعجوهم حتى عن طعامهم وشرابهم، ويقظتهم ومنامهم، فما أعذب الموت فى سبيل تنغيص الظالمين".(١)

ومن خصائص الأسلوب الخطاب الموسيقى، وقد بت واضحة فى نثر المنفلوطى من خلال انسجام الحروف وحلاوة جرسها، وائتلاف الكلمات وتلائم فقرها، وانتقاء الألفاظ العذبة ذوات الإيقاع الموسيقى الجميل، والصنعة غير المتكلفة التى تبدت فى السجع والازدواج وغير ذلك مما ذكرناه فى الصورة البديعية.

---

(١) النظرات: ٣/١٨٣.

المبحث الثامن: الترسل الأدبى

كان المنفلوطى يميل إلى الترسل، ولكنه ليس كترسل ابن خلدون، بل ذلك الترسل الأدبى الذى لا يعمد فيه إلى السجع إلا نادرا، وبدون تكلف، ويعمد فى معظم الأحيان إلى الازدواج، ومراعاة النعم والانسجام بين فواصل الجمل، وحسن انتقاء الألفاظ، متجنبا منها الحوشى والغريب قدر المستطاع، وإن استخدم بعضه أحيانا على سبيل بعث كلمة وإحيائها. (١)

وقد ساعده على هذا الترسل استيعابه لروائع التراث النثرى المترسل الذى سطره كبار الكتاب فى عصور الازدهار، وتوجيهات الأستاذ الإمام، هذا إلى جانب ملكته الأدبية الأصيلة وطبعه الموهوب. كل هذا جعله يخرج بطريقة فى الكتابة تعد الطريقة الأم لكل الاتجاهات الفنية الأسلوبية فى الكتابة العربية الحديثة. (٢)

وقد بدت هذه السمة فى مقالاته الإسلامية، فنراه مثلا يتحدث عن صفات النبى ﷺ فيقول: "كان ﷺ شجاع القلب، فلم يهب أن يدعو إلى التوحيد قوما مشركين يعلم أنهم غلاظ جفاف شرسون متمرون يغضبون لدينهم غضبهم لأعراضهم، ويحبون آلهتهم حبهم لأبنائهم.. كان حليما سمح الأخلاق فلم يزعجه أن قومه يؤذونه، ويزدرونه ويشعثون منه، ويضعون التراب على رأسه، ويلقون على ظهره أمعاء الشاة وسلى الجزور، وهو فى صلاته، بل كان يقول: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون.

كان واسع الأمل كبير الهمة صلب النفس، لبث فى قومه ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله فلا يلبى دعوته إلا الرجل بعد الرجل، فلم يبلغ الملل من نفسه، ولم يخلص اليأس إلى قلبه". (٣)

---

(١) نشأة النثر الحديث وتطوره، لعمر الدسوقى، ص ٢٥٠ و٢٥١.

(٢) دراسات أدبية، د./ أحمد هيكل، ص١٢١ بتصرف، ط دار المعارف الأولى ١٩٨٠.

(٣) النظرات: ١/١٢٧ و١٢٨، مقاله عن "عبرة الهجرة".

ففى هذا النموذج مال المنفلوطى إلى السهولة والترسل، وابتعد عن التكلف وتحلى بالصدق الواقعى الذى تمثل فى الصفات التى وصف بها النبى ﷺ، واهتم بشرح هذه الصفات بأسلوب اتسم بصفاء الديباجة وروعة الموسيقى وجمال التعبير، والحرص على بناء الجملة وتوازنها بين الجمل المتتابعة، كما حاول رسم صورة لهؤلاء المدعوين وما هم عليه من غلظة وجفاء فى طبيعتهم، ومن إيذاء وازدراء فى سلوكياتهم.

والترسل عند المنفلوطى يمتاز بسهولة التركيب، تلك التى وصفت كثيراً بالامتناع. هذا مع أصالة النهج البيانى، وروعة النغم الموسيقى، وامتزاج العاطفة الجياشة المغلفة بضباب الأسى، النزاعة إلى العبرة السريعة ــ إلا إذا تصدى للدفاع فى مواقف التعصب للأمة ــ قيمها ودينها ــ فإنه يتشح بالجرأة ويتسم بالإشراق، وهو فى كل هذا ذو منزع خطابى، وعظى أو حماسى، ومن ثم كان عميق التأثير فى جمهوره. (١)

---

(١) مصطفى لطفى المنفلوطى، د./ محمد أبوالأنوار، ٢/٢٦٢.

المبحث التاسع: قوة الحجة وبراعة الاستدلال

هذه سمة من أبرز سمات النثر الإسلامي عند المنفلوطي، وقد تأثر فيها إلى حد كبير بالإمام محمد عبده الذى أخذ عنه "تحديد الموضوع، والاهتمام بالفكرة، والاسترسال مع الحجة حتى يبلغ بها منزلة الإقناع"[١]، وعلى هذا نرى الرجل من الناحية الفكرية "ذا قدرة على تقديم الحجة القوية، والاستدلال البارع، معتمدا فى ذلك على صدق النظرة، وصواب الاستنتاج دون اللجوء إلى فكر عميق أو معاظلة".[٢]

وقد بدا هذا واضحا فى حسه الإسلامي وفهمه السليم الذى مكنه من الوقوف فى وجه الدعوات التى تشوه الإسلام وتريد النيل منه، وتتهمه باتهامات باطلة ما أنزل الله بها من سلطان، ولعل ما كتبه اللورد كرومر فى كتابه "وصف مصر" أصدق دليل على نقول، فقد حاول فى هذا الكتاب التجنى على الإسلام، ووصفه بالتعصب، وهنا يتصدى له المنفلوطى بحسه الدينى المتقد، وفهمه لطبيعة الإسلام السمحة، فينقض كل فرية زعمها الرجل مدللا على كل ما يقول، وقد بدا هذا واضحا فى مقال له بعنوان "الإسلام والمسيحية" وقد بدأه بمقدمة يعجب فيها من هؤلاء الذين يعجبون مما كتبه اللورد كرومر عن الإسلام، مع أن هذا أمر طبيعى من الرجل لأنه يدين بغير الإسلام، والمعتقد اليسوعى الذى يعتقده يقوم على أن الإسلام دين موضوع ابتدعه عربى بدوى ما قرأ فى حياته صحيفة، وهذه النظرة تخالف نظرة المسلم الذى يعتقد أنه رسول موحى إليه من عند الله بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وفى خضم رده على اللورد كرومر نراه لا يجنح إلى العصبية البغيضة، بل تسوقه روح الإنصاف عندما يثنى على بعض علماء الغرب المسيحيين الذين اتسموا بالأمانة والصدق فى حديثهم عن الإسلام، ولم يكن اللورد كرومر واحدا من هؤلاء لأنه انساق وراء تعصبه الأعمى، يقول المنفلوطى: "أما ما نقرؤه

---

(١) بين الأدب والنقد، د./ محمد رجب البيومى، ص١٣٥.

(٢) مصطفى لطفى المنفلوطى، د./ محمد أبوالأنوار، ٢/٢٦٥.

أحيانا لبعض علماء الغرب المسيحيين من الثناء على الإسلام وإطراء أحكامه وآياته، فهو يكتبون بأقلام قوم مؤرخين قد أدوا للتاريخ حق الأمانة والصدق، فلم يعبث التعصب الديني بكتاباتهم، ولا تمشت الروح المسيحية في أقلامهم، ولا ريب أن اللورد كرومر ليس واحدا منهم، فإن من قرأ كتابه "مصر الحديثة" خيل إليه أنه يسمع صوت راهب في صومعته قد لبس قلنسوته ومسوحه وعلق صليبه في زناره".[1]

ثم ينبري لتفنيد ما ادعاه اللورد كرومر، وتكذيب أراجيفه التي أرجف بها، ودحض معتقده بالمنطق والعقل حين سار مع جماعة المبشرين الذين حكموا بوجود اللحن في القرآن الكريم، وهنا يرتفع صوت الرجل مدافعا عن القرآن بما يحمل من حجج، يقول: "بلغ التعصب الديني بجماعة المبشرين أن حكموا بوجود اللحن في القرآن بعد اعترافهم بأنه كتاب عربي نظمه على حسب معتقدهم رجل هو في نظرهم أفصح العرب، وليست مسألة الإعراب واللحن مسألة عقلية يكون للبحث العقلي فيها مجال، وإنما الإعراب ما نطق به العرب، واللحن ما لم ينطقوا به؛ فلو أنهم اصطلحوا على نصب الفاعل ورفع المفعول مثلا لكان رفع الأول ونصب الثاني لحنا، ولكن جهلة المبشرين لم يدركوا شيئاً من هذه المسلمات، واستدلوا على وجود اللحن في القرآن لقواعد النحو التي ما دونها مدونوها إلا بعد أن نظروا في كلام العرب وتتبعوا تراكيبه وأساليبه، وأكبر ما اعتمدوا عليه في ذلك هو القرآن المجيد، فالقرآن حجة على النحاة، وليست النحاة حجة على القرآن، فإذا وجد في بعض تراكيب القرآن أو غيره من الكلام العربي ما يخالف قواعد النحاة حكمنا بأنهم مقصرون في التتبع والاستقراء، على أنهم قصروا في شئ من ذلك، وما تركوا كثيرا ولا قليلا ولا نادرا ولا شاذا إلا دونوه في كتبهم، فلا القرآن بملحون ولا النحاة مقصرون، ولكن المبشرين جاهلون، فإذا كان التعصب الديني أنطق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة

---

(١) النظرات: ١/١٨٠.

المضحكة فليس بغريب أن نسمع هذا الرجل المتشبه بهم هذا الطعن على الإسلام في عقائده وأحكامه".[١]

ويرد المنفلوطي على كرومر لبَّ قضيته وهي "أن الدين الإسلامي دين جامد لا يتسع صدره للمدنية الإسلامية، ولا يصلح للنظام الاجتماعي، ويقول: إن ما لا يصلح له الدين الإسلامي يصلح له الدين المسيحي، ويستدل على الإسلام بالمسلمين، وعلى المسيحية بالمسيحيين".[٢]

وهنا يستنكر المنفلوطي ما امتطاه الرجل وفرى به، ويوجه إليه بعض الاستفهامات التي تحمل بين طياتها ضربات موجعة تنقض فكرته التي أقامها على غير حجة معريا له مسيحيته المنحرفة، وقد بدت صور انحرافها واضحة وضوح الشمس في كبد السماء، فهي التي أثارت الحرب الدموية بين طوائفها المختلفة، وجعلت إرادة المسيحي صورة من إرادة الكاهن الجاهل الذي يحرم على أتباعه النظر في كتاب غير الكتاب المقدس، وحاربت العلم بمحاكم التفتيش التي حاكمت من أرادوا العلم والمعرفة، ولعل من أقوى الشواهد على ذلك أن الشعب المسيحي أحرق فتاة حسناء بعدما كشط لحمها، وحرق عظمها؛ لأنها تشتغل بعلوم الرياضة والحكمة.

وبعد عرضه لهذه الصور يقول له: "هذا الذي نعرفه أيها الفيلسوف التاريخي من تاريخ العلم والعرفان والمدنية والعمران في العصور المسيحية، ولا نعلم أكانت تلك المسيحية التي كان هذا شأنها وهذا مبلغ سعة صدرها صحيحة في نظرك أم باطلة، وإنما نريد أن نستدل بالمسيحيين على المسيحية، وإن لم تقف على حقيقتها كما فعلت أنت في استدلالك بالمسلمين على الإسلام وإن لم تعرف حقيقته وجوهره".[٣]

ثم نراه يبرهن على بطلان استدلاله فيما ذهب إليه من الربط بين المدنية الحديثة والمسيحية؛ فالمدنية الحديثة ما دخلت أوربا إلا بعد أن زحزحت

---

(١) نفسه: ١/١٨٠ و١٨١.

(٢) نفسه: ١/١٨١.

(٣) النظرات: ١/١٨٢ و١٨٣.

المسيحية منها لتحل محلها، وقد أكد انفصام هذا الرباط بقوله: "فلا علاقة بين المسيحية والتمدن الغربي من حيث يستدل به عليها، أو باعتبار أنه أثر من آثارها، ونتيجة من نتائجها، ولو كان بينه وبينها علاقة ما افترقت عنه خمسة عشر قرنا كانت فيها أوربا وراء ما يتصوره العقل من الهمجية والوحشية والجهل، فما نفعتها مسيحيتها ولا أغنى عنها كهنوتها".(١)

ويتحدث بعد ذلك عن المدنية الإسلامية التي طلعت مع الإسلام، وسارت إلى جانبه كتفا لكتف، ما ينكر من أمرها، ولا ننكر من أمره شيئا، وهذا يتناقض تماما مع ما حدث بين المدنية الحديثة والمسيحية، فقد سار كل منهما في طريق يخالف طريق الآخر.

ثم ينقض فكرة الرجل من جذورها، مبينا فضائل الإسلام على المدنية الغربية، ومساوئ المسيحية ودورها في تأخر المسلمين، يقول: "أيها الفيلسوف: إن كان لابد من الاستدلال بالأثر على المؤثر فالمدنية الغربية اليوم أثر من آثار الإسلام بالأمس، والانحطاط الإسلامي اليوم ضربة من ضربات المسيحية الأولى وإليك البيان".(٢)

ثم أخذ يبين له أن الإسلام جاء يحمل للنوع البشري جميع ما يحتاج إليه في معاشه ومعاده، ودنياه وأخراه، وأن شمسه المشرقة طلعت في سماء العرب، فانتفع الناس بنورها وضيائها على تفاوت بينهم، ثم تمشت أشعة شمس الإسلام إلى أوربا من طريق أسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا، فأبصرها عدد قليل من أذكياء الغربيين فانتبهوا من رقدتهم، واستيقظوا من سباتهم، ورأوا من جمال المذاهب الإسلامية، وشرائع الكون وقواعد الحرية والمساواة ما لفت نظرهم إلى المقابلة بين المجتمع الخامل الضعيف، والمجتمع الشرقي النابه اليقظ، وهنا ضاق هؤلاء الأذكياء ذرعا بمجتمعاتهم، وما فيها من مساوئ تمثلت في استعباد الملوك، وسرقات الكهان، وسيوف الجلادين وكبت الحريات، وقد دفعهم هذا إلى

---

(١) نفس المرجع: ١/١٨٣.

(٢) نفسه: ١/١٨٧.

مطالعة كتب المسلمين والتأثر بهم، فأخذوا يعلمون الناس سرا، ويبثون الإسلام في نفوس تلاميذهم شيئاً فشيئاً.

وبعد أن بين له مراده قال له: "أيها الفيلسوف التاريخي: إنك لابد تعلم ذلك حق العلم لأنه أقل ما يجب على المؤرخ أن يعلمه، كما تعلم أن المدنية الإسلامية إذا وسعت غيرها فأحر بها أن تسع نفسها، ولكن التعصب الديني قد بلغ من نفسك مبلغه، فما كفاك أن أنكرت فضل صاحب الفضل عليك، حتى انكرت عليه فضله في نفسه".(١)

ويتحدث بعد ذلك عن حال المسلمين، وما أصابهم من ضعف وخور، ولكنه كان ذكيا ألمعيا عميق الغور عندما أرجع سبب وهن المسلمين إلى المسيحية: "التي سرت عدواها إليهم على أيدى قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباس الإسلام وتزينوا بزيه، ودخلوا بلاده، وتمكنوا من نفوس ملوكه الضعفاء، وأمرائه الجهلاء، فأمدوهم بشئ من السطوة والقوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمة، وعقائدهم الخرافية بين المسلمين، حتى أفسدوا عليهم مذاهبهم وعقائدهم، وأوقعوا الفتنة فيهم، وحالوا بينهم وبين الاستمداد من روح الإسلام وقوته فكان من أمرهم بعد ذلك ما كان".(٢)

وفي خاتمة المقال ينفي التعصب عن المسلمين ليرد بهذا على فرية المستعمرين يقول: "أيها الفيلسوف التاريخي: لا تقل إننا متعصبون تعصبا دينيا فإنك قد أسأت إلينا وإلى ديننا، فلم نر بدا من الذب عنا وعنه بما تعلم أنه حق وصواب، على أنه لا عار علينا فيما نقوله، وهل التعصب الديني إلا اتحاد المسلمين يدا واحدة على الزود عن أنفسهم والدفاع عن جامعتهم؛ وإعلاء شأن دينهم ونصرته حتى يكون الدين كله لله".(٣)

وأسلوب المقال كما نرى تبدو فيه قوة الحجة وبراعة الاستدلال، ويمتاز بهندسة أسلوبية جميلة، وتشيع فيه روح البحث، فقد اعتمد على التحليل الدقيق،

---

(١) نفسه: ١/١٨٧.

(٢) نفسه: ١/١٨٨.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

والتعليل المقنع والمناقشة المتأنية التى مكنته من إبراز وجه الإسلام المشـــرق، ودحض شبهات اللورد كرومر وأمثاله من خلال فكر منظـــم تشـــيع فيـــه روح السخرية التى تمضى بالقارئ نحو الإقناع، وتلزم الخصم الحجـــة، ويمكـــن أن توصف هذه المقالة بأنها مقاله جدليه؛ لأنها "ناقشت فكرة ما، وبينت ما بها مـــن خطأ وصواب، وصدق وكذب".(١)

(١) مصطفى لطفى المنفلوطى، د./ محمد أبو الأنوار، ٣٣٣/١، وراجع فى الأدب الحديـــث لعمر الدسوقى، ٤١١/١ بتصرف.

المبحث العاشر: الاتجاه القصصي

اتجه المنفلوطى فى أسلوبه إلى الشكل القصصى ليذهب الرتابة والملل عن القارئ، ويقدم الفكرة بطريق غير مباشر، ورأيناه يقدم فى مقالاته التى تعتمد على الحس الإسلامى نوعا من القصص، فيه بعض عناصر قصصية، ولكنها غير مكتملة من الناحية الفنية البحته؛ لأن إلى جانبها عناصر أخرى أقرب إلى فن المقال أو فن الخطابة. "ومن هذا المزيج القصصى المقالى الخطابى، اتخذ المنفلوطى طريقته القصصية، هادفا إلى غاية تهذيبية، وهى تعميق الإحساس بالمثل العليا والقيم الإنسانية الكبرى، كالوفاء والشرف والشجاعة والفضيلة وحب الخير والحق والجمال، مستخدما للتعبير عن طريقته والوصول إلى غايته، أسلوبا بيانا أخاذا، يقوم على تجويد التعبير، ورعاية موسيقى الكلام، والاهتمام برسم الصورة، وإثارة العاطفة".(١)

ومقالاته التى تأخذ شكل القصة عديدة وهى "مدينة السعادة"، و"رسالة الغفران"، و"يوم الحساب" و"البعث"، وتقوم هذه المقالات على التخيل، "وتعتمد فى تخيلها على "الحلم"، ومن خلال الحلم تتحرك، الأحداث والشخصيات بما يريد الكاتب قوله، وإن كان فيما قال وكتب يعالج قضايا عصره، ويسقطها على الأشخاص والأحداث القديمة، ثم يعرض وجهة نظره فى المجتمع القائم وعناصر إفساده وملامح فساده.. وأيضا يطرح تصوراته الإصلاحية لتسود الفضيلة ويتحقق الأمل المنشود".(٢)

وهذه المقالة تعد خطوة متقدمة من جانب "المنفلوطى" إذ يوظف إمكاناته الثقافية والفنية فى معالجة الواقع بطريقة مشوقة ومبتكرة، فنرى فى مقاله "مدينة السعادة" قصة رمزية فى رحلة منامية أودع فيها المنفلوطى نقده لمجتمعه بطريقة لبقة. ففيها نقمة على النظم الاجتماعية فى مجالات أهمها: العقيدة، الخلق العام، الإقطاع الحكم.

---

(١) تطور الأدب الحديث فى مصر، د./ أحمد هيكل، ص ٢٠٢ و٢٠٣.

(٢) مدرسة البيان فى النثر الحديث، د./ حلمى القاعود، ص٢٠٣.

ومدينة السعادة تصور خيالي لمدينة فاضلة "يعيش أهلها سعداء لا يشكون هما لأنهم قانعون، ولا يمسكون في أنفسهم حقدا.. لأنهم متساوون، ولا يستشعرون خوفا لأنهم آمنون".[١]

وتعتمد المقالة على حكاية يسردها، وتستغرق معظم المقالة، ومن خلالها يلح المنفلوطي على الفكرة الأساسية التي يعالجها، ويتراوح اعتماد المقالة على القصة ونوعها، فقد تكون في المقالة قصة تستغرق مساحتها[٢] أو يكون هناك أكثر من قصة[٣]، وغالبا ما كان المنفلوطي يخترع الكثير من القصص التي يضمنها مقالاته الإسلامية، فهو مثلا حين أراد أن يعالج قضية "الأوصياء" الذين يظلمون القصر، ويأكلون حقوقهم، ويهملون تربيتهم، ويعرضونهم للمخاطر والمهالك، يخترع قصة وصي ظهر بمظهر الوفي الشهم، ولكنه يخون الأمانة ويستأثر بكل شئ لنفسه على حساب الفتى القاصر الذي تركه الموصي.[٤]

ويلاحظ أن هذا النوع من المقالات القصصية قد ألح عليه أعلام البيان في مقالاتهم بصفة عامة، ولعل ذلك يرجع إلى اهتمامهم بجذب القارئ وشد انتباهه والتأثير فيه، ويعد هذا النوع تطورا ملحوظا في فن المقالة في النثر الحديث، يعطي لمدرسة البيان فضل الريادة.[٥]

---

(١) النظرات: ٧٥/١.

(٢) انظر مثلا: مقالة "عبرة الدهر"، النظرات: ١٠١/١.

(٣) انظر مثلا: مقالة "الصدق والكذب"، النظرات: ١١٢/١.

(٤) النظرات: ١٢٩/٢ ومابعدها.

(٥) مدرسة البيان في النثر الحديث، د./ حلمي القاعود، ص ٢٠١ و٢٠٢.

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة التى تتبعت فيها حس المنفلوطى الإســـلامى فـــى كتابه النظرات تظهر لنا عدة نتائج هى:

(١) استطاع المنفلوطى من خلال نثره مقالاته الإسلامية أن يحافظ على شرقيته الإسلامية، ويجعلها طابعا عاما فى كتاباته يجلى حسناتها، غير مغض طرفه عن عيوبها، محاولا إصلاحها، منطلقا فى ذلك من أصالة تاريخية تضـــرب بجذورها نحو ثقافته الشرقية الإسلامية، غير مانع من الاستفادة من الجيـــد الممتع عند أصحاب المدنية الغربية، على أن لا نكون مقلدين.

(٢) يحارب المنفلوطى فى أدبه العقدى الإلحاد فى الدين والفساد فـــى العقيـــدة داعيا إلى العقيدة السليمة، محاربا للشرك والخرافات التى تنحرف بالمســـلم عن الطريق السوى، وهذا يدل على فهمه الصحيح للإسلام، وغوصه فـــى أعماق الشريعة مسكشفا كنه نورانيتها وروعة قدســيتها وبســطة ســماحتها وأسرار أركانها وجلال أحكامها.

(٣) فكرة الإعجاز الجديدة عند المنفلوطى تتمثل فى صفات النبى ﷺ، حيـث إن هذه الصفات التى يتميز بها أخلاقيا ونفسيا، هى التى تعطى النموذج الأرقـى للإعجاز، فهى التى بهرت العرب أكثر من معجزاته الأخرى.

(٤) شاع فى نثره الإسلامى الروح الإصلاحية فى ثنايا مقالاته الاجتماعية، وقد بدت هذه الروح فى صورتين:

أ-حملته على رجال الدين والسياسة الذين جبنـــوا عـــن مواجهـــة البـــاطل ومقاومته وإصلاحه، وشغلوا الناس بقشور الدين، وضيعوا أوقاتهم فـــى بدع باطلة ومعتقدات منحرفة.

ب-شعوره وتألمه لرؤية المظلومين والمضطهدين والبائسين والمنكوبيـــن، وقد بدا هذا واضحا فى مقالاته الاجتماعية التى ســـادت فيـــها الـــروح الإسلامية، ولعله بهذا أراد أن يؤدى جانبا هاما من رسالته الاجتماعيـــة التى تعنى فى بعض غاياتها بترقيق القلوب وتهذيب النفوس.

(٥) المنفلوطى فى حسه الإسلامى يمثل المسلم المستنير الداعى إلى عدم التعصب وإلى التسامح، والتزام روح الشرع وأسراره وحكمه، وقد بدا هذا واضحا فى مقاله "لا هجمية فى الإسلام" والمقال الذى كتبه فى رثاء جورجى زيدان.

(٦) دفاعه عن لغة القرآن الكريم، وتصديه لتلك الحملة الشعواء التى شنت عليها من جهات متعدده، ورده على ادعاء قصورها عن مقتضيات الحضارة الحديثة، والدعوة إلى إنشاء بعض المجمعات لخدمة اللغة العربية.

(٧) دعوته لجهاد الغاصبين المحتلين، وتفجعه واستصراخه لإغاثة المنكوبين من المسلمين ليحقق بذلك هدفا ساميا وهو وحده ديار الإسلام.

(٨) الذاتية سمة واضحة فى حس المنفلوطى الإسلامى، ولا حرج عليه إذا اتخذ من القديم مثلا يحتذيه؛ لأنه بهذا يجمع بين الأصالة والمعاصرة، وكانت طريقته – برغم محافظتها واتخاذها النثر الجيد مثلا أعلى – طريقة إبداعية فى كثير من جوانبها، ففيها أصالة المنفلوطى وعليها طابعه، وكل ما كتب بها من موضوعات حية هى من تجارب الكاتب المرتبطة بنفسه وقومه وعصره، وبهذه الذاتية نرى أنه ضرب بسهم كبير فى حقل التجديد الأدبى المعتدل الذى يقوم على التعاون بين الماضى والحاضر، والدعوة الحقة حين تدعو إلى التجديد لا تفصله عن القديم ولا تعز له عن الماضى بل تجعل من الماضى سبيلا إلى الجديد، ومن التطور رابطة بين القديم والحديث، وهذا ما حققه المنفلوطى فى نثره الإسلامى ليسير بهذا مع منظومة الفكر الإسلامى الواعى الذى ينفتح دوما على ثقافات الأمم دون أن يتخلى عن مقوماته.

(٩) المنفلوطى فى معجمه اللغوى كان حريصا على استخدام ألفاظه استخداما لغويا سليما، وصياغتها صياغة حسنة، من خلال الطاقة التعبيرية والصوتية للكلمة بما لها من دلالة وإيحاء وإشعاع فنى دقيق، وهذه الخصائص التعبيرية والفنية للفظة يمكننا الوقوف عليها فى كل ألفاظ النثر الإسلامى فى نظراته، حيث انتقى ألفاظه انتقاء، وانتخبها بذوق الأديب ووجدان الكاتب.

(١٠) بدا الرافد التراثي الأصيل واضحا في حسه الإسلامي، وهذا يدل على أن للموروث حضور حي في وجدانه، وحين يتوسل به للوصول إلى وجدان الجماعة، يكون قد توسل بأقوى الوسائل تأثيرا عليه؛ لأن كل معطى من معطيات التراث يرتبط دائما بهالة من القيم الفكرية والروحية، وتأثره بالتراث يدل على عمق انتماء المنفلوطي إلى موروثة الديني واللغوي والتاريخي.

(١١) يتميز أسلوب المنفلوطي بالقدرة على الوصف، والاستقصاء لجوانب الموصوف، فهو يتمتع بحس عميق، وإدراك واع، ودقة ملاحظة في نقل انطباعاته وأحاسيسه عن الناس والأشياء، وهو يغوص في أعماق شخصياته ليستخرج منها أنفس الصفات وأزكاها، وينجح في وصفه لأحوال النفس؛ لأنه يتمتع بقدر من الحساسية، والتأمل النفسي، وهذا يسمح له بتقديم نماذج مرضية، إذا أراد وصف الشعور أو الإحساس.

(١٢) البنية النثرية الإسلامية في نظرات المنفلوطي تمتاز بأمرين هما:

أ-التشكيل البنوي الدقيق الذي ربط بين أجزاء مقالاته ربطا يحقق التناغم الذي يسير بالقارئ إلى الوجهة التي يريدها المنفلوطي.

ب-النقض النثري فقد لجأ فيه إلى ما يشبه النقض الشعري، فنراه يطرح بعض الدعاوى التي يرددها أعداء الإسلام للنيل منه، ثم يقوم بالإجابة عليها ونقضها، هادما لمعانيها وأفكارها وحججها، كاشفا مفترياتها وحقدها الدفين على الإسلام، وهذا يدل على وعي جيد ومرهف بطبيعة الإسلام.

(١٣) الصورة في نثر المنفلوطي الإسلامي استمدت عناصرها من الحكايات التراثية أو المظاهر الكونية، أو النفس الإنسانية أو الواقع الاجتماعي، وانتزعت من فكره الواعي انتزاعا؛ لأنها خلاصة عقله وحضوره الذهني، ولذلك تبدو فيها ألوان البديع المختلفة، وتتزاحم فيها التشبيهات والاستعارات؛ لأنه كان شديد الحرص على الصياغة الفنية في أسلوبه بجانب أنه أديب فكرة وهدف قبل أن يكون أديب إحساس وشعور. وهناك ما يسمى بالصورة

الحقيقية، وهى لا تعتمد على شكل من أشكال المجاز، وتحقق مع ذلك شروط الاستحضار الحسى البارز لثراء تفاصيلها ودقة تركيبها.

(١٤) تبرز بعض خصائص الخطبة فى حس المنفلوطى الإسلامى فى كتابه النظرات، فتراه يبدأ ويعيد فى معانيه على طريقة الخطباء، بل هو يستعير منهم النداء، بمثل أيها الإنسان. وترى عنده مثلهم التكرار فى الكلمات، كما ترى عنده كثرة الفواصل بين العبارات، إذ كثيرا ما يقطع المعانى ويستأنفها. وقد يكون ذلك بسبب كثرة انفعالاته العاطفية. ومن خصائص الخطبة الوضوح، وقد بدا هذا فى نثره القائم على البيان والتصريح، البعيد عن أشكال الإبهام والغموض والمراوغة فى التعبير، ورأينا أيضا إثارة الشعور وقد اتخذ له بعض الوسائل الفنية.

(١٥) مال المنفلوطى إلى الترسل الأدبى الذى لا يعمد فيه إلى السجع إلا نادرا، وبدون تكلف، وساعده على هذا استيعابه لروائع التراث النثرى المترسل الذى سطره كبار الكتاب فى عصور الازدهار، وتوجيهات الأستاذ الإمام، هذا إلى جانب ملكته الأدبية الأصلية وطبعه الموهوب. كل هذا جعله يخوج بطريقة فى الكتابة هى الطريقة الأم لكل الاتجاهات الفنية الأسلوبية فى الكتابة العربية الحديثة.

(١٦) من أبرز معالمه الأسلوبية قوة الحجة وبراعة الاستدلال، فقد كان ذا قدرة على تقديم الحجة القوية، والاستدلال البارع، معتمدا فى ذلك على صدق النظرة، وصواب الاستنتاج دون اللجوء إلى فكر عميق أو معاظلة، ولعل من أصدق الأدلة على ذلك مقالة "الإسلام والمسيحية" الذى رد فيه على اللورد كرومر وقد اعتمد فيه على التحليل الدقيق، والتعليل المقنع والمناقشة المتأنية التى مكنته من إبراز وجهه الإسلام المشرق ودحض شبهات اللورد كرومو وأمثاله.

(١٧) اتجه المنفلوطى فى نثره الإسلامى إلى الشكل القصصى ليذهب الرتابة والملل عن القارئ، ويقدم الفكرة بطريق غير مباشر، ويهدف من وراء هذا إلى غاية تهذيبية، وهى تعميق الإحساس بالمثل العليا، والقيم الإنسانية

الكبرى كالوفاء والشرف والشجاعة والفضيلة وحب الخير والحق والجمال، مستخدما لتحقيق هدفه أسلوبا بيانا أخاذا، يقوم على تجويد التعبير، ورعاية موسيقى الكلام، والاهتمام برسم الصورة، وإثارة العاطفة.

المصـادر والمراجـع

١-أدب المقالة، د/ عبدالعزيز شرف، ط مكتبه لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر.
٢-أدباء العرب، لبطرس البستاني، ط دار الجيل بيروت.
٣-أربعة أدباء معاصرين، د/ عمر فروخ، ط بيروت ١٩٤٤.
٤-الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د/ محمد محمد حسين، ط مكتبة الآداب الثالثة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
٥-الأدب العربي المعاصر في مصر، د/ شوقي ضيف، ط دار المعارف الثامنة.
٦-الأدب العربي الحديث ومدارسه، د/ محمد عبدالمنعم خفاجي، ط دار الطباعة المحمدية.
٧-بين الأدب والنقد، د/ محمد رجب البيومي، ط الدار المصرية اللبنانية.
٨-تطور الأساليب النثرية، لأنيس المقدسي، ط بيروت.
٩-تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع إلى قيام الحرب الكبرى الثانية، د/ أحمد هيكل، ط دار المعارف ١٩٦٨م.
١٠-تاريخ الأدب العربي، لأحمد حسن الزيات، ط دار المعرفة بيروت.
١١-جريدة الجمهورية ٣ يوليو ١٩٦٣ عباس خضر.
١٢-دراسات أدبية، د/ أحمد هيكل، ط دار المعارف الأولى ١٩٨٠م.
١٣-دراسات في علم النفس الأدبي، للأستاذ/ حامد عبدالقادر، ط١٩٤٩م.
١٤-علم الأسلوب، د/ صلاح فضل، ط مؤسسة مختار القاهرة ١٩٩٢م.
١٥-فن الخطابة، د/ أحمد الحوفي، ط نهضة مصر.
١٦-الفنون الأدبية وأعلامها الحديثة، د/ أنيس المقدسي، ط دار العلم للملايين ـ بيروت.
١٧-القصة القصيرة في مصر منذ نشأتها حتى سنة ١٩٣٠ لعباس خضر، ط الدار القومية للطباعة والنشر ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م.
١٨-مختارات المنفلوطي، ط المكتبة التجارية الكبرى.

١٩-مدرسة البيان فى النثر الحديث، د/ حلمى محمد القاعود، ط دار الاعتصام.
٢٠-مراجعات فى الأدب والفنون، للعقاد، ط بيروت الأولى ١٩٦٦.
٢١-مشكلات الفكر الإسلامى المعاصر فى ضوء الإسلام، للأستاذ أنور الجندى، ط مجمع البحوث الإسلامية ـ السنة الرابعة ـ العدد الحادى والخمسون ـ ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٢م.
٢٢-مصطفى لطفى المنفلوطى حياته وأدبه، د/ محمد أبوالأنوار، ط مكتبة الآداب.
٢٣-نشأة النثر الحديث وتطوره، لعمر الدسوقى، ط دار الفكر العربى ١٩٧٦م.
٢٤-النثر الكتابى فى العصر الأموى، د/ محمد فتوح أحمد، ط مكتبة الشباب الأولى ١٩٨٤م.
٢٥-النظرات للمنفلوطى، ط دار الشرق العربى بيروت.
٢٦-وحى الرسالة لأحمد حسن الزيات، ط دار الثقافة بيروت.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة.	١
التمهيد.	٣
١-مولده ونشأته وحياته.	٣
٢-آثـــاره.	٦
٣-دوره فى تطوير النثر العربى الحديث.	٧
الفصل الأول: المضامين الإسلامية فى كتاب النظرات	٩
المبحث الأول: المحافظة على هوية أمتنا العربية الإسلامية.	٩
المبحث الثانى: أدب العقيدة.	١٦
المبحث الثالث: فكرة جديدة للإعجاز.	٢٤
المبحث الرابع: الروح الإسلامية الإصلاحية فى مقالاته الاجتماعية.	٢٧
المبحث الخامس: ثورته على التعصب الدينى وشيوع روح التسامح الإسلامى.	٣٥
المبحث السادس: اللغة العربية.	٣٨
المبحث السابع: دعوته لجهاد المحتلين وتفجعه واستصراخه لإغاثة المنكوبين من المسلمين.	٤٠
الفصل الثانى: الخصائص الفنية لأسلوب المنفلوطى فى كتابه النظرات	٤٢
المبحث الأول: الذاتية.	٤٢
المبحث الثانى: المعجم اللغوى.	٤٦
المبحث الثالث: الروافد الأصيلة:	٥٢
١-الرافد القرآنى.	٥٢
٢-الرافد الشعرى.	٥٥
المبحث الرابع: القدرة على الوصف.	٥٨

المبحث الخامس: البنية النثرية:	٦٣
١-تشكيل البنية.	٦٣
٢-النقض النثرى.	٦٥
المبحث السادس: الصـــورة:	٦٧
١-الصورة المجازية.	٦٧
٢-الصورة الحقيقية.	٦٩
٢-الصورة البديعية.	٧١
المبحث السابع: شيوع الروح الخطابية:	٧٦
١-التكرار.	٧٦
٢-الوضوح.	٧٨
٣-إثارة الشعور.	٨٠
٤-الموسيقى.	٨٢
المبحث الثامن: الترسل الأدبى.	٨٣
المبحث التاسع: قوة الحجة وبراعة الاستدلال.	٨٥
المبحث العاشر: الاتجاه القصصى.	٩١
الخاتمة.	٩٣
المصادر والمراجع.	٩٨
الفهرس.	١٠٠